

اساليب الخطاب العقدي في سورة الانعام

إعداد الدكتورة/ هدى عبد الرحمن عبد الحفيظ علي

دكتوراه في التفسير وعلومه - جامعة ام القرى - المملكة العربية السعودية

Email: hoda262009@hotmail.com

جوال ٠٥٠١٨٧٩٢٣٢

الملخص

تناول البحث الأساليب التي عمدت إليها سورة الانعام من أسلوب لين ولطف إلى أسلوب ترهيب ، مما يدل على استخدام كل الأساليب للدعوة إلى توحيد الله ، وتصحيح العقيدة ، وإقامة الحجة على الناس وقد جربت السورة كل أساليب الخطاب فذهبت إلى أسلوب القصة وحكت رحلة سيدنا إبراهيم مع الكواكب حتى وصل إلى الله الخالق ، ولم تقتصر دعوة الخطاب العقدي على ذلك بل شنت حرباً كلامية على المجادلين المُلحدّين وقارعتهم الحُجّة بالحُجّة كأقوى أسلوب للدعوة إلى وحدانية الله وعبادته.

واختتم هذا البحث بنتائج وتوصيات هي في مجملها أن العقيدة السليمة هي طريق السلامة في الدنيا والآخرة ، وأن الدعوة إلى تصحيح العقيدة قائم لا ينتهي إلى أن تقوم الساعة ، وعلى الدعاة القيام بواجبهم واستخدام كل اساليب الدعوة حيال من لم تصلهم دعوة الإسلام ، والذين فسدت عقائدهم لتصحيح الأمر ، وأن سورة الأنعام سورة حظيت بخصائص تجعلها جديرة بالمدارسة في معانيها واستنباط نفائس ما فيها لتعم الفائدة.

الكلمات المفتاحية: اساليب الخطاب، سورة الأنعام

Abstract

The research investigates the methods of Surat Al-Anam that intended from a soft and gentle style to a method of intimidation, which indicates the use of all a methods to call for the monotheism of Allah, correcting the doctrine, and establishing argument on people. The Surah has tried all the methods of discourse with the telling story style of Abraham's journey, with the planets until he reached faith in the Creator. The call of the dogmatic speech was not confined to that, but it launched a verbal war on the atheists, with an argumentative style

This research concluded with results and recommendations of entirely sound doctrine. So that to follow the path of safety in this world and hereafter, and the preachers must pay an attention by using effective methods of an advocacy, to convince none believers to embrace Islam, as well as to mend those with corrupted beliefs, therefore. Surat Al-Anam is a surah which has characteristics. Thus, makes it worthy to study its meanings and to devise precious things in it for the benefit to prevail

Keywords: Styles of discourse, Surat Al-Anam

المقدمة

الحمد لله نستعيذُه ونستغفرُه ونحمدهُ على نعمة الهداية والرّشاد والتّوحيد به ونصلي ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ولا سبيل إلى الاهتداء بهدي القرآن إلا بالتعرف على معانيه ، والعقيدة هي الركيزة الأساسية في الفطرة السليمة ، وهي الجانب النظري الذي يطلب ، الإيمان به أولاً ، وقبل كل شيء إيماناً لا يرقى إليه شك ، ولا تؤثر فيه شُبُهة ومن طبيعة العقيدة تضافر النصوص الواضحة على تقديرها ، وهي أول ما دعا إليه الرسول صلي الله عليه وسلم وطلب من الناس الإيمان به في المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وهي دعوة كل رسول ونبي جاء من قبل الله تعالى ، ونرى من خلال سور وآيات القرآن الكريم أنه ما من أمة أو قوم أشركوا وعبدوا الأصنام ، إلا أرسل الله تعالى إليهم رسوله ، فكانوا يعرضون على الناس عقيدة التوحيد ، فتلقت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض والنظر في أنفسهم وقد استطاعوا أن ينقلوا الناس من الوثنية إلى عقيدة التوحيد.

والعقيدة هي مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل ، والسمع والفطرة ، يعقد عليها الإنسان قلبه ، ويثني عليها صدره جزماً بصحتها ، قاطعاً بوجودها وثبوتها ، لا يري خلافها أنه يصحح أو يكون أبدأً. وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه وعلمه به ، وقدرته عليه ، ولقائه به بعد موته ومجازاته إياه على كسبه الاختياري وعلمه غير الاضطراري ، وكاعتقاده بوجود طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيته من طريق كتبه ورسله ، طاعة تزكو بها نفسه ، وتكملُ بها أخلاقه ، وكاعتقاده بغنى ربه تعالى عنه ، افتقاره هو إليه. فهو مولاه الذي لا مولى له غيره ومعبوده الذي لا معبود له سواه ، لا يري ربوبية غيره ، ولا يعتقد ألوهية سواه^(١).

كما أن حاجة الإنسان للعقيدة ضرورة ، وأنه في حاجة إلى الإيمان والدين الذي هو ضرورة من ضرورات حياته ، من حاجياته النفسية لذا لم تخلُ أمه وُجدت على وجه الأرض منذ الأزل من عقيدة ودين ، ومصادق ذلك قوله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } (٢٤)^(٢). والإنسان بفطرته يشعر بضعفه وحاجته إلى رب في إعانته وتوقيفه ، لذا وهو يطلب التعرف إلى ربه ليعبده. وتأتي هنا مسألة الرب الحق والإله الواحد والعقيدة السليمة ، وقد تولى الله تعالى أمر عباده بأن يرشدهم إلى سواء السبيل وإلى العقيدة السليمة ، فما من رسول إلا وأرسله الله إلى قومه ليرشدهم إلى عبادة الله الحق وإلى سواء السبيل ، وتعدّ سورة الأنعام من القرآن المكي الذي ركز على مسألة العقيدة السليمة وتوحيد الله وإفراده بالعبودية والألوهية ، كما تميزت سورة الأنعام بخصائص أكسبتها عظمة وهيبة فهي دون سور القرآن نزلت جملة واحدة بمكة وشيعها سبعون الف ملك نزلوا بها ليلاً لهم زجل^(٣) ، وقد ظلت معاني التوحيد تلازم كل آية في السورة، فتجد الآية الواحدة يتفرع منها أكثر من موضوع ، إلا أنها تصبّ في ماعون العقيدة السليمة.

(١) أبو بكر جابر الجزائري - عقيدة المؤمن - دار الفكر - بيروت - ط ١ ١٩٩٥ م. ص ١٤.

(٢) سورة فاطر - الآية: "٢٤".

(٣) تفسير القرطبي - ج ٢ - ص ٣٨٢.

فصلت في ذلك ثم أجملت ، ولم تترك جانباً من جوانب الحياة، أو آية من آيات الكون إلا وأشارت إليه بالدلالة إلى توحيد الله وعبادته، عبادة على وجهها الذي يُحِبُّه ربنا ويرضاه ويكتب لنا النجاح والفلاح وسعادة الدارين.

موضوع البحث:

يُعنى هذا البحث بمسألة اساليب الخطاب من خلال سورة الأنعام باعتبارها من القرآن المكي الذي دأب علي مخاطبة اهل الكفر بأساليب مختلفة لتصحيح العقيدة، ومحاربة الشرك والعقائد غير السليمة .

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى التعرف على اساليب الخطاب العقدي في سورة الأنعام، لما تحتويه وتتفرد به عن سائر سور القرآن الكريم ، فقد ورد في الأثر أنها نزلت جملة واحدة، وتحفها آلاف الملائكة لهم هزيج ، فهذه الحفاوة الملائكية جديرة بالبحث في أعماق هذه السورة لاسيما وأن السمة العامة لها هي العقيدة وتوحيد الله تعالى.

ومن الأهداف توضيح أهمية العقيدة السليمة في حياة الأمم وما يترتب عليها من سعادة الدارين.

- عكس صورة الذين جافوا العقيدة السليمة من المشركين ولم يوحدا الله ويعبدوه خاصة وهم يعرضون في جهنم.
- حثمية الدعوة إلي توحيد الله وإفراده بالعبودية باتباع كافة اساليب الخطاب وعلى مختلف الأزمان والعصور.

أهمية البحث وأسباب اختيار الموضوع:

تأتي أهمية الموضوع من خلال تناوله لقضية العقيدة السليمة التي لا يستقيم أمر إلا بها في الدنيا والآخرة.

ظل القرآن المكي وسورة الأنعام نموذج له ، يطرق على قضية التوحيد ومحاربة العقيدة الفاسدة والشرك بقدر يبين مدى أهمية التوحيد في حياة الأمم سلفاً وخلفاً بتوحيد الله وإزالة مظاهر الشرك.

هذا بالإضافة إلى الخصائص التي تميزت بها سورة الأنعام عند نزولها جملة واحدة وأن آية واحدة فقط منها حقتها اثنتا عشر ألف من الملائكة كما في الآية { وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو }^(١).

حظيت سورة الأنعام بالعديد من الموضوعات ذات الصبغة التوحيدية الرامية إلي توحيد الله وعبادته. هذا بالإضافة إلى المنهج المتعدد في تناول تصحيح العقيدة والدعوة إلى الوحدانية بأساليب مختلفة قبل ضرب الأمثال والتنوع الخطابى وتعظيم الله وإبراز صفاته الدالة على قوته وجبروته ورحمته، وبالتالي عبوديته هذا بالإضافة إلى ما جاء في السورة من أحكام ووصايا يجب الاهتمام بها لمزيد من الفائدة العميقة التي هي من نعم الله تعالى لإرشاد العباد وتوجيههم.

ومن أهم أسباب اختيار الموضوع هو معرفة اساليب الخطاب العقدي التي تطرقت إليها سورة الانعام وضرورتها وأهميتها للإنسان.

(١) سورة الأنعام – الآية: "٥٩".

من الخصائص المهيبة والسمات الجليلة لسورة الأنعام والثراء الموضوعي الذي احتوت عليه السورة ، والذي هو نسيج عقدي سليم لتوحيد الله وعبادته.

مشكلة وأسئلة البحث:

تُعد مسألة التوحيد وعدم الشرك بالله قضية أساسية في منهج الحياة لأي فرد لصالح ديناه وآخرته ، ومع مستجدات الحياة وعدم معاودة الناس للقرآن والتدبر في معانيه والاعتاظ به وبالسنة الشريفة ، أصبح هناك الكثير من الدخن الذي يشوش على الناس عقيدتهم ويبيدهم عن العقيدة الحقة ... وقد دأب القرآن الكريم على الطرق على مسألة العقيدة واساليب الخطاب حتى لا تُؤتي من أي جانب فيها تناوياً يصلح لكل زمان ومكان ، وسورة الأنعام تزخر بمثل هذا الطرح حيث تناولت من زوايا مختلفة قضية العقيدة وإصباحها وتوحيد الله وعبوديته ، لذا كان لا بد من مثل هذا البحث الذي سعى إلى تسليط الضوء على اساليب الخطاب العقدي في السورة والاستفادة من منافعها ومنافع القرآن كله ، ومن ناحية أخرى يظل هنالك سؤال يطرح نفسه هل يمكننا استخدام اساليب الخطاب العقدي المختلفة ونحن نسعى إلى تجديد وتصحيح العقيدة مع مستجدات الحياة التي تتطراً علينا وبصورة مذهلة وبالقدر الذي يمكن أن يشوش علينا عقيدتنا وتوجهنا بأعمالنا خالصة لله الواحد؟.

منهج البحث:

اتبع البحث المنهج التاريخي ، وذلك لتتبع مسارات العقيدة منذ القديم ومرآحل الاعتقاد التي مر بها البشر ، وصُور العقائد المختلفة وأنواعها إلى أن جاء الإسلام وما جاء في التفاسير المختلفة بشأن اساليب الخطاب العقدي في سورة الأنعام.

ثم اتبع المنهج الاستقرائي التحليلي لسبر أغوار معاني سورة الأنعام الدالة على التوحيد ، وإصباح العقيدة وما تحويه من نفاثات في هذا الجانب.

والمنهج الوصفي التحليلي والتاريخي وذلك بتفسير بعض اساليب الخطاب العقدي الدالة على وحدانية الله وحتمية عبوديته والتي وردت في سورة الأنعام.

أدوات البحث:

اعتمد البحث في أدواته على المصادر الرئيسية من تفاسير القرآن وغيرها.

الدراسات السابقة:

جُلّ الدراسات السابقة لم تتناول اسالي الخطاب العقدي في سورة الأنعام وحدها ولم تفرد لها المساحة الكاملة التي توفيقها حقها. بل كان تناول اساليب الخطاب العقدي لعدة سور او تناول جزئي لأساليب الخطاب العقدي مثل: (الترغيب والترهيب في سورتي المائدة والأنعام).

الصعوبات التي واجهت الباحث:

عدم فهرسة الرسائل الجامعية في المكتبات بصورة علمية توضح الدراسات التي قامت وعلى وجه الخصوص تلك المتعلقة بسورة الأنعام.

الخطة الهيكلية للبحث:

واحتوى على خمس مباحث

المبحث الأول بعنوان أساليب الخطاب العقدي في سورة الأنعام و المبحث الثاني أسلوب الترغيب

المبحث الثالث أسلوب الترهيب و المبحث الرابع أسلوب القصة و المبحث الخامس الحرب الكلامية

المبحث الأول.

أسلوب المنطق

المطلب الأول: مفهوم الأسلوب:

الأسلوب لغة:

يطلق الأسلوب في اللغة إطلاقاً مختلفة يقال للطريق بين الأشجار أسلوب ويقال لطريقة المتكلم في الكلام: أسلوب الكلام ، وأنسب هذه المعاني في الاصطلاح هو معنى الفن أو المذهب.

والأسلوب في الاصطلاح هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه ، أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم لتأدية معانيه ومقاصده من كلامه ، أو هو طابع الكلام أو فنه الذي انفرد به المتكلم كذلك.

معنى الأسلوب في القرآن:

وعلى هذا فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه، واختيار ألفاظه ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به ، فإن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به. وأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر ، تتعدد بتعدد أشخاصهم ؛ بل تتعدد في الشخص الواحد لتعدد الموضوعات التي يتناولها والفنون التي يعالجها.

والأسلوب غير المفردات والتراكيب التي يتألف منها الكلام وإنما هو الطريقة التي انتهجها المؤلف في اختيار المفردات والتراكيب لكلامه.

اتخذ الخطاب العقدي في سورة الأنعام أساليب عدة، فتارة أسلوب المنطق ومرة أسلوب المنطق والترهيب معاً ، وأسلوب البرهان العقلي ، وأسلوب القصة والحُجّة^(١).

المطلب الثاني: الاستدلال بآيات الكون:

اعتمد أسلوب المنطق في سورة الأنعام على لفت الانتباه إلى آيات الله سبحانه وتعالى المختلفة في الكون والدالة على وحدانيته وألوهيته والرد على التساؤلات التي طرحها المكابرون والملحدون من أهل مكة على النبي عليه الصلاة والسلام، وقد جاء الرد من عند الله شافياً داحضاً لكل حججهم الواهية وهي: قوله تبارك وتعالى: { وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } {٧} وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ } {٨} (٢). قوله تبارك وتعالى: { فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {٤٣} (٣).

قال تعالى: (ولو نزلنا عليكم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين "٧" وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون "٨" ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون "٩").

قال تعالى: (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين "٤٥" قل آريتم إن أخذ الله سمعكم وأبصركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به أنظر كيف نصر ف الآيات ثم هم يصدفون "٤٦" قل أرءتم إن أتاكم عذاب الله بغته أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون "٤٧").

قال تعالى: (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون "٥٠"). يقول القرطبي في تفسيره: ولو نزلنا يا محمد بمرأى منهم كما زعموا وطلبوا كلاماً مكتوباً في قرطاس. وعن ابن عباس كتاباً معلقاً بين السماء والأرض، وهذا يبين لك أن التنزيل على وجهين إحداهما على معني نزل عليك الكتاب بمعنى نزول الملك به، والآخر لو نزلنا كتاباً في قرطاس يمسكه الله بين السماء والأرض، وقال نزلنا على المبالغة بطول مكث الكتاب بين السماء والأرض والكتاب مصدر بمعنى الكتابة، فبين أن الكتابة في قرطاس؛ لأنه غير معقول الكتابة إلا في قرطاس أي: صحيفة. {فلمسوه بأيديهم} أي فعابنوا ذلك ولمسوه باليد كما أقدحوا وبالغوا في ميزه وتقلبه حساً بأيديهم، ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كل إشكال؛ لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم وقالوا سحر مبين إنما سكرت أبصارنا وسحرنا، وهذه الآية جواب لقولهم {حَتَّىٰ تُنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ} فاعلمه الله بما سبق في علمه من أنه لو نزل لكذبوا به^(٤).

(١) أبو الفضل محمد بن مكرم - لسان العرب - دار صادر - بيروت ١/٢٥٣.

(٢) سورة الأنعام - الآيات: "٧، ٨، ٩".

(٣) سورة الأنعام - الآية: "٤٦".

(٤) أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - مؤسسة مناهل العرفان - بيروت - ج٦، ص ٣٩٣.

وقال ابن كثير في قوله تعالى { لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ } { ١٤ } { لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ } { ١٥ } ^(٥) وكقوله تعالى: { وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ } { ٤٤ } ^(٦) { قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ } أي فيكون منه نذيراً قال الله تعالى { وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّفُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ } أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاهم من الله العذاب، كما قال تعالى: { مَا نُنزِّلُ المَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنظَرِينَ } { ٨ } ^(٧) وقوله تعالى: { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً أَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ } أي: ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً، لكان على هيئة رجل لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، وكان كذلك لتلبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول الرسالة البشري كما قال تعالى: { قُلْ لَوْ كَانِ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً } { ٩٥ } ^(٨) فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم، ليدعوا بعضهم بعضاً، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال.

قال الضحاك: عن ابن عباس في قوله { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً أَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا } يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في سورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور { وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ } أي: ولخاطنا عليهم ما يخلطون ^(٨). وفي هذه الآيات أخبر الله سبحانه وتعالى عن شدة صلابة الذين كفروا في الكفر بأسلوب منطقي فهذه الآيات تثبت العقيدة بالمنطق وهذه من أساليب القرآن المنطقية.

يقول سيد قطب في قوله تعالى: { إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ } وهي صورة ضعيفة منكره تثير الاشمزاز، حيث لا مجال مع هذه الجبلات لحجة أو جدل أو دليل وتصويرها على هذا النحو وهي صورة تمثل حقيقة لنماذج مكرره يؤدي غرضين أو عدة أغراض:

أنه يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن، كالذي يرفع المرأة لصاحب الوجه الشائه والسحنة المنكرة، ليري نفسه في هذه المرأة ويخجل منها. وهو في الوقت ذاته يستجيش ضمائر المؤمنين تجاه أعراض المشركين وإنكار المنكرين، ويثبت قلوبهم على الحق، فلا تتأثر بالجو المحيط من التكذيب والأنكار والفتنة والإيذاء. كذلك يوحى بعلم الله الذي لا يجعل على هؤلاء المعارضين المكذبين، وهم في مثل هذا العناد المنكر الصفيق. وكلها أسلحة وحركة في المعركة التي كانت تخوضها الجماعة المسلمة بهذا القرآن في مواجهة المشركين ^(٩).

(٥) سورة الحجر - الآية: "١٤".

(٦) سورة الطور - الآية: "٤٤".

(٧) سورة الحجر - الآية: "٨".

(٨) سورة الإسراء - الآية: "٩٥".

(٨) الحافظ بن كثير - تفسير القرآن العظيم - دار الحديث - القاهرة - ط ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م - ج ٣ - ص ٢٧٦.

(٩) سيد قطب - في ظلال القرآن - دار الشروق - القاهرة - ط ٢٧ - ١٤١٩ - ١٩٩٨ م - ج ٢ - ص ١٠٣٩.

وقال الشوكاني في تفسيرها (هذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم ووحدهم؛ لأنه مصدر يدل على الجمع بخلاف البصر ولهذا جمعه والختم الطبع. والمراد أخذ المعاني القائمة بهذه الجوارح أو أخذ الجوارح نفسها والاستفهام في { مَنْ اللهُ } غير الله صفة للخبر ووحده في { بِهِ } مع أن المرجع متعدد على معنى: فمن يأتيكم بذلك المأخوذ أو المذكور وقيل: الضمير راجع إلى أحد هذه المذكورات وقيل أن الضمير بمنزلة اسم الإشارة: أي يأتيكم بذلك المذكور، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنظر في تصديق الآيات وعدم قبولهم لها تعجباً من ذلك. والتصديق المجيء بها على جهات مختلفة تارة إنذار وتارة إغذار وتارة ترغيب وتارة ترهيب وقوله { تَمُّ هُمْ يَصْدِقُونَ } عطف على تصديق) ومعني يصدقون يعرضون، يقال صدق عن الشيء: إذا عرض عنه صدقاً وصدقاً^(٢).

المطلب الثالث: أسلوب الحجة:

جاءت الحجة والمحااجة في سورة الأنعام كأقوى أسلوب لتثبيت عقيدة التوحيد حيث اتخذت طرائق متعددة فكان حوار سيدنا إبراهيم الخليل مع أبيه ومع قومه وكذلك الحوار بينه والملك النمرود ففي قوله تبارك وتعالى: { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يُشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } {٨٠} { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } {٨١} }^(٣).

يقول ابن كثير في تفسير الآيتين: يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظره بشبهه من القول قال { أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ } أي تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصرنني وهداني إلى الحق وأنا على بينه منه، فكيف التفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟.

يقول ابن عطية في قوله تعالى { وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ... } أي تعلمون هذه الآية، أي تعلمون من قوله إبراهيم عليه السلام لقومه، وهي الحجة القاطعة لهم والمعنى وكيف أخاف الأصنام التي لا تخطب لها وهي حجارة وخشب إذا أنا نبذتها ولم أعظمها، ولا تخافون أنتم الله عز وجل وقد أشركتم به في الربوبية أشياء لم ينزل بها عليكم حجة؟ والسلطان الحجة. ثم استفهم على جهة التقرير { فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ } أي من لم يشرك بالفادر العالم أحق أن يأمن^(٤).

قال ابن عباس: (جادلوه في آلهتهم وخوفه بها فأجابهم منكرًا عليهم قائلاً: أتجادلونني في وحدانيته وقد بصرنني هو أي على الحق، ولا أخاف هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما تزعمون إلا إذا أراد أن يصيبني ربي بشيء من المكروه، فيكون أحاط علمه جميع الأشياء أفلا تعتبرون وتتعتظون ، وفي هذا تنبيه لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ،

(٢) محمد بن علي بن محمد الشوكاني - فتح القدير - دار الحديث - القاهرة - ط٣ ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م - ج٣ - ص١٦٨.

(٣) الأنعام - الآيات: "٨٠ - ٨١".

(٤) ابن عطية - المحرر الوجيز - ص٦٣٩.

وأشركوا مع ظهور الدلائل مع الله في العبادة كما قال تعالى: { وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ قَالَ أَنحَا جُوتِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } (٨٠) (١).

المطلب الرابع: أسلوب البرهان:

تضمنت سورة الأنعام أسلوب البرهان الذي يعتمد على الدليل العقلي في تثبيت وتصحيح العقيدة وفي قوله تعالى: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ } (٩١) (٢).

يقول ابن كثير في تفسيرها: يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسوله إلههم. قال ابن عباس، ومجاهد، وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير. وقيل: نزلت في طائفة من اليهود، وقيل: في فخاص رجل منهم. وقيل في مالك بن الصيف: { إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ } والأول هو الأظهر، لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب قاطبة. كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر كما قال تعالى: { أَكَا نَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ } (٢) (٣).

وقال تعالى: { وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا } (٩٤) { قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا } (٩٥) (٤).

ويستثير الخطاب عقول أهل الكتاب المنكرين رسالة محمد صلي الله عليه وسلم والجاحدين قائلًا: { قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ } أي قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لأنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة يعني التوراة التي قد علمتم وكل أحد إن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهي للناس أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات ويهتدي بها من ظلم الشبهات. وقوله أي: قطعاً يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ما يحرفون، ويبدلون، ويتأولون، ويقولون: { هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ }، أي في كتابه المنزل، وما هو من عند الله ولهذا قال: { تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا } وقوله تعالى { وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ }، أي: ومن أنزل القرآن الذي علم الله فيه من خبر ما سبق ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلموا ذلك، لا أنتم ولا آبؤكم وقد قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. وقال مجاهد هذه للمسلمين. وقوله { قُلِ اللَّهُ }، قال طلحه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس،

(١) سورة الأنعام - الآية "٨٠".

(٢) سورة الأنعام - الآية "٩١".

(٣) سورة يونس - الآية "٢".

(٤) سورة الإسراء - الآيات: "٩٤، ٩٥".

أي: قل الله أنزله وهذا الذي قاله ابن عباس هو المعين في تفسير هذه الكلمة لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معني قوله {قُلِ اللَّهُ} أي: لا يكون خطابك إلا هذه الكلمة كلمة {الله} وهذا الذي قاله هذا القائل يكون اقرأ بكلمة مفردة من غير تركيب والإتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها. وقوله {ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتي يأتيهم من الله اليقين، فسوف يعلمون: ألهم العاقبة، أم لعباد الله المتقين؟^(١) يقول القرطبي في قوله تبارك وتعالى: {ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} أي: لا عيين، ولو كان جواباً للأمر لقال يلعبوا ومعنى الكلام التهديد^(٥).

وقال سيد قطب في قوله تعالى {وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} وذلك من عجائب التخيل، وعلى ختام المشهد يلتقي السياق بالخطاب إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم. ومن وراه من المؤمنين وإلى الناس أجمعين؛ ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن، وبإحالة هذا الحشد الحاشد إلى النار، وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم تقص عليهم آيات الله وتذرههم لقاء يومهم هذا؛ ليعقب على المشهد وما كان فيه بأن عذاب الله لا ينال أحداً إلا بعد الإنذار، وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم أي بشركهم إلا بعد أن ينبهوا من غفلتهم، وتقص عليهم الآيات، وينذرهم المنذرون. لقد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر حتى يرسل إليهم الرسل، على الرغم مما أودعه فطرتهم من قوة العقل والإدراك فالعقل قد يضل تحت ضغط الشهوات. وعلى الرغم مما في كتاب الكون المفتوح من آيات فقد تتعطل أجهزة الاستقبال كلها في الكيان البشري. لقد أنيط بالرسول والرسالات مهمة استنقاذ الفطرة من الركام واستنقاذ العقل من الانحراف، واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس وجعل العذاب مرهوناً بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار. وهذه الحقيقة تصور رحمة الله بهذا الإنسان،

وفضلهن كذلك تصور قيمة المدارك البشرية من فطرة وعقل، وتقرر إنما وحدها لا تعصم من الضلال ولا تهدي إلى يقين، ولا تصبر على ضغط الشهوات ما لم تساندها العقيدة وما لم يضبطها الدين^(١).

جاء في تفسير الطبري: لقوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَا حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ أَلَمْ أَعْلَمْ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)^(٢).

قوله تعالى: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَا حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء، فنوتى مثل ما أوتى موسى وعيسى من الآيات؛ ونظيره (بل يريد كل أمرى منهم أن يؤتى صحفاً منسورة)، والكناية في (جاءتهم) ترجع إلى الأكابر الذين جرى ذكرهم. قال الوليد بن المغيرة: لو كانت النبوءة حقاً لكنت أولى بها منك؛ لأتى أكبر منك سنناً، وأكثر منك مالا وقال أبو جهل: والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت الآية،

(٥) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج ٧ - ص ٣٨.

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٢٠٩.

(٢) تفسير الطبري - ص ٥٠.

وقيل: لم يطلب النبوة، ولكن قال لا نصدقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك والأول أصح؛ لأن الله تعالى قال: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) أي بمن هو مأمون عليه وموضع لها والصغار: الضيم والذل والهوان، وكذا الصغر (بالضم) والمصدر الصغر (بالتحريك) وأصله من الصغر دون الكبر؛ فكان الذل يصغر إلى المرء نفسه.

وقيل (عند الله) أي من عند الله، فحذف. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي سيصيب الذين أجمعوا عند الله صغار. قال الفراء: سيصيب الذين أجمعوا صغار من الله. وقيل: المعنى سيصيب الذين أجمعوا صغار ثابت عند الله.

قال ابن كثير في تفسيره: إذ جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة {قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلَ اللَّهِ} أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتي إلى الرسل، كقوله جل وعلا: { وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَفَدَّ سِتَكُورُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا } (٢١) (٣). وقوله {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} أي: هو أعلم حين يضع رسالته، ومن يصلح لها من خلقه (٤).

وإذا جاءتهم، من الآيات (قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله) يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء. وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغربية وعجفتهم العجيبة ونظيره، يريد كل أمرئ منهم أن يؤتي صحفاً منشورة) والمعنى إذا جاءت الأكاير آية قالوا هذه المقالة فأجاب الله عنهم بقوله: (الله أعلم حيث يجعل رسالته، أي أن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولاً ويكون موضعاً لها وأميناً عليها، وقد اختار أن يجعل الرسالة في محمد صفيه وحببيه، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم، ثم توعدهم بقوله: (سيصيب الذين أجمعوا صغار) أي ذل وهوان، وأصله من الصغر، كأن الذل يصغر المرء نفسه. وقيل الصغار هم الرضا بالذل (سيصيب الذين أجمعوا صغار) (أشركوا) (صغار).

ويقول سيد قطب في تفسيرها: (ثم يكشف السياق القرآني عن طبيعة الكبر في نفوس أعداء رسل الله ودينه. الكبر الذي يمنعهم من الإسلام خيفة أن يرجعوا عباداً لله كسائر العباد، فهم يطلبون امتيازاً ذاتياً يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع ويكبر عليهم أن يؤمنوا للنبي فيسلموا له، وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للاتباع، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع، وأن يأمرهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع. ومن أجل ذلك يقولون قولتهم المنكرة الغيبة كذلك: لن نؤمن حتى نؤتي مثلما أوتي رسل الله {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلَ اللَّهِ} وقد قال الوليد ابن المغيرة: (لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك، لأني أكبر منك سناً، وأكثر منك مالاً وقال أبو جهل: والله لا نرضي بها ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه. وواضح أن الكبر النفسي وما اعتاده الأكاير من الخصوصية بين الأتباع ومظهر هذه الخصوصية الأول وهو الأمر منهم والطاعة من الأتباع. واضح أن هذا من أسباب تزيين الكفر في نفوسهم، ووقوفهم من الرسل والدين موقف العداء (٥).

إن الرسالة أمر هائل خطير، أمر كوني تتصل فيه الإرادة الأزلية الأبدية بحركة عبد من العبيد ويتصل فيه الملاء الأعلى بعالم الإنسان المحدود. وتتصل فيه السماء بالأرض، والدنيا بالآخرة، ويتمثل فيه الحق الكلي في قلب البشر وواقع الناس،

(٣) سورة الفرقان - الآية "٢١".

(٤) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج ٣ - ص ٣٧٢.

(٥) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٢٠٢.

وفي حركة التاريخ ، وتتجرد فيه كينونة بشرية من حصر ذاتها لتخلص لله كاملة، لا خلوص النية والعمل وحده، ولكن كذلك خلوص المحل الذي.. هذا الأمر الخطير فذات الرسول صلي الله عليه وسلم تصبح موصولة بهذا الحق ومصدره صلة مباشرة كاملة. وهي لا تتصل هذه الصلة إلا أن تكون من ناحية عنصرها الذاتي صالحة للتلقي المباشر الكامل بلا عوائق ولا سدود.

والذين يتطلعون إلى مقام الرسالة أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتي الرسول هم أولاً من طبيعة لا تصلح أساساً لهذا الأمر. فهم يتخذون من ذواتهم محوراً للوجود الكوني. والرسول من طبيعة أخرى، طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلماً ويهب لها نفسه، ويبنى فيها ذاته ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب { وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ } ثم هم بعد ذلك جهال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل، ولا يعلمون أن الله وحده هو الذي يقدر بعلمه على اختيار الرجل الصالح^(١).

ويقول ابن عطية في تفسيره: هذه الآية ذم للكفار وتوعد لهم، يقول: وإذا جاءتهم علامة ودليل على صحة الشرع تشططوا وتسحبوا وقالوا: إنما يفلق لنا البحر، إنما يحي لنا الموتى ونحو ذلك فرد الله عز وجل عليهم بقوله: { اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ }، أي فيمن اصطفاه وانتخبه لا فيمن كفر وجعل يتشطط على الله. قال الزجاج قال بعضهم: الأبلغ في تصديق الرسل ألا يكونوا قبل المبعث مطاعين في قومهم. ثم توعد تعالى بأن هؤلاء المجرمين الأكابر في الدنيا سيصيبيهم عند الله صغار وذلة^(٢).

ومن تفسير هذه الآيات نجد أن أسلوب المنطق في سورة الأنعام اتخذ أشكال عدة مستخدماً البرهان والعقل والحجة ، ويتضح لنا أن هذه السورة احتوت على العديد من الآيات التي تحدثت عن العقيدة بأسلوب منطقي ، وهذا الأسلوب من أساليب القرآن الكريم في الإقناع لتصحيح العقيدة وهي القضية الكبرى في الدين ممثلة في القاعدة الأساسية في الإسلام (الألوهية والربوبية).

كما نجد أن القرآن الكريم ظل يحاصر الجاحدين بوحداية الله والملحدين برسالته صلي الله عليه وسلم ، مستعيناً بكل الأساليب حتى يُبطل حججهم الواهية وتبين حقيقة توحيد الله تعالى.

وتتسع دائرة الخطاب لتشمل الجنّ بالإضافة إلى الإنس؛ تأكيداً لشمولية الرسالة لتوجب توحيد الله وعبادته من قبل كل المخلوقات؛ ولأنّ الجنّ يحاسبون كغيرهم من المخلوقات ، فلا بد من تبليغهم لرسالة التوحيد. وجاء تقديم الجنّ على الإنس تأكيداً على أن الأمر يشملهم؛ ولأنّ كفار الجنّ لهم دور في إضلال العباد وإخراجهم من دائرة التوحيد وعبادة الله^(١).

(١) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٢٠٢.

(٢) ابن عطية - المحرر الوجيز - ص ٦٦٠.

(١) الباحثة

المبحث الثاني

أسلوب الترغيب

المطلب الأول: مفهوم الترغيب:

كلمة ترغيب ورد التعبير عنها في المصادر اللغوية بألفاظ متنوعة على سبيل التقارب والترادف وأهم هذه الألفاظ هي:

الرغبة ، رغب ، الراغب ، الرغبا ، الرغاب . والرغب بالتحريك يتعدى بنفسه يقال رغب فيه: أي أحب حصوله به وتوجه شوقه إلى طلبه^(١).

وقوله ظهرت (الرغبة) كثرة السؤال قلة العفة ومعنى ظهور (الرغبة) الحرص على الجمع مع منع الحق ، رغب يرغب رغبة إذا حرص على الشيء وطمع فيه^(٢).

ورغب فلان على الشيء إذا طمع فيه ورغب إليه أي ابتهل وتضرع وأيضاً يقال رغب إليه في كذا وكذا سألته إياه ، ورغب عن الشيء تركه متعمداً وزهد فيه^(٣). والترغيب اصطلاحاً حيث هناك فرق بين (الرغبة) و (الرجاء) فالرجاء طمع، والرغب طلب هي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهروب من الخوف، فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه ومن خاف شيئاً هرب منه، والمقصود أن الراجي طالب، والخائف هارب، فإن الرغبة أيضاً طلب معين، وهو على الشك من حصوله فإن المؤمن يرغب في الجنة وليس جازماً بدخولها، فالفرق الصحيح إن (الرجاء) طلب، و(الرغبة) طلب^(٤).

أما قوله تعالى: { عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ }^(٥) {٣٢} بمعنى أن يوجه المؤمن قلبه إلى ربه، ولا يرغب إلا إلهه في شيء من الرغائب التي وراء كسبه وحقوقه الشرعية.

والترغيب اصطلاحاً: وعد يصاحبه تحبيب وإغراء بمصلحة أو لذة أو متعة عاجلة مؤكدة حرة خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح أو الامتناع عن لذة ضارة، أو عمل سيئ ابتغاء مرضاة الله تعالى^(٦).

(١) أبو الفضل محمد بن مكرم - لسان العرب - دار صادر بيروت / ١/ ٢٥٣.

(٢) أبو القاسم بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني - المفردات في غريب القرآن - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت / ب/ ط/ ت/ ١/ ص ١٩٨.

(٣) إبراهيم مصطفى - المعجم الوسيط - دار التراث العربي - بيروت لبنان / ب/ ط/ ب/ ت/ ١/ ٣٥٦.

(٤) ابن القيم الجوزية - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - ١/ ٦/ ١/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ لبنان/ ط(١٣٩٣هـ- ١٩٨٣م)

(٥) سورة القلم - الآية: "٣٢".

(٦) عبد الرحمن النحلوي - أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع - دار الفكر المعاصر / بيروت - ص ٢١٦/ ب/ ت.

المطلب الثاني: الترغيب في الجنة:

وقد جاءت الآيات في سورة الأنعام لتحرك الوجدان البشري وتخطب العقول لتعريف حقيقة توحيد الله جل وعلا؛ ولتحث العباد على طلب الثواب الأعظم، وهو السعادة في الدنيا والآخرة بالاعتقاد السوي، وهو توحيد الله تعالى والإيمان به دون سواه، وأن ثمرة ذلك هو دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون). قوله تعالى: (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون).

قوله تعالى: (لهم)، أي للمتذكرين (دار السلام) أي الجنة، فالجنة دار الله كما يقال: الكعبة بيت الله. ويجوز أن يكون المعنى دار السلامة، أي التي يسلم فيها من الآفات. ومعنى (عند ربهم)، أي مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضلهم. (وهو وليهم) أي ناصرهم ومعينهم.

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ { أي يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة هاهنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المتقضي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكلما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام، (وهو وليهم) أي والسلام هو الله، وليهم أي حافظهم وناصرهم ومؤيدهم بما كانوا يعملون) أي: جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأتابهم الجنة، بيمينه وكرمه^(١).

ويقول سيد قطب في تفسيرها أيضاً: (والذين يتذكرون، لهم دار السلام عند ربهم، دار الطمأنينة والأمان مضمونة عند ربهم لا تضيع، وهو وليهم وناصرهم وداعيمهم وكافلهم، ذلك بما كانوا يعملون فيه الجزاء على النجاح في الابتلاء ومرة أخرى نجدنا أمام حقيقة ضخمة من حقائق هذه العقيدة حيث يتمثل صراط الله المستقيم في الحاكمية والشريعة. ومن ورائها يتمثل الإيمان والعقيدة. إنما طبيعة هذا الدين كما يقرها رب العالمين^(٢)).

ومن إكرام الله سبحانه وتعالى للإنسان أن بعث فيه روح الإيمان كما قال تعالى (أومن كان ميتاً فأحييناه ...)، أي أو من كان كافراً ميت القلب مغموراً في ظلمة الجهل، فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حياً بعد موته مشرقاً مستنيراً بعد ظلمته، فجعل الكافر لانصرافه عن طاعته وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه، ترك الأخذ بنصيبه من رضاه والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه، ويعمل في خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه له فأبصر الحق بعد عماه عنه، وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إغراضه عنه وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس وهم سرف الظلام^(٣).

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج ٣ - ص ٣٧٨.

(٢) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ٢٠٥.

(٣) جامع البيان الطبري/١٢٥/٥.

المطلب الثالث: الترهيب والترغيب معاً:

ومن أسلوب القرآن المتميز بالشمولية والإيجاز اجتماع أسلوبين في آية واحدة، حيث اجتمع الترغيب والترهيب كما في قوله تبارك وتعالى: { قَدْ جَاءَكُمْ بَصَآئِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ } (١٠٤) (٤).

وقوله تبارك وتعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } (١٦٥) (٥).

يقول ابن كثير في تفسيرها يقول تعالى: فإن كذبوك يا محمد، فخالفوكم من المشركين وإلى هود ومن شابههم فقل: { رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ } وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، وإتباع رسوله { وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ }، ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن؛ كما قال تعالى في آخر هذه السورة { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } (١٦٥) (٦). وقال: { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } (٦) (٧). وقال تعالى: { نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } (٤٩) { وَأَنَّ عِدَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ } (٥٠) (٨). وقال تعالى: { غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ } (٣) (٩). وقال تعالى: { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ } (١٠) (١٠). والآيات في هذا كثيرة.

(وهو الذي جعلكم خلائف الأرض) خلائف، جمع خليفة: أي جعلكم خلفاء الأمم الماضية والقرون السالفة، أو المراد أنه يخلف بعضهم بعضاً أو أن هذا النوع الإنساني خلفاء الله في أرضه، (ورفع بعضكم فوق بعض درجات).

في الخلق والرزق والقوة والفضل والعلم، (ليبلوكم فيما آتاكم) أي ليختبركم فيما آتاكم من تلك الأمور؛ أو ليبنتلي بعضكم ببعض كقوله تعالى: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة) ثم خوفهم فقال: (أن ربك سريع العقاب) فإنه، وإن كان في الآخرة، فكل أت قريب كما، قال تعالى: (وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب)، ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين فقال (وإنه لغفور رحيم أي كثير الغفران والرحمة)،

(٤) سورة الأنعام - الآية: "١٠٤".

(٥) سورة الأنعام - الآية: "١٦٥".

(٦) سورة الأنعام - الآية: "١٦٥".

(٧) سورة الرعد - الآية: "٦".

(٨) سورة الحجر - الآيات: "٤٩، ٥٠".

(٩) سورة غافر - الآية: "٣".

(١٠) سورة البروج - الآيات: "١٢، ١٣، ١٤".

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: (ولا تزر وازرة)، قال لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السريجة في قوله: (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض)، قال أهلك القرون الأولى، فاستخلفنا فيها بعدهم (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) قال في الرزق.

يقول ابن كثير (يقول تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ } أي: تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلفاً بعد سلف. قال ابن زيد وغيره، كما قال تعالى: { وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ }^(١) وكقوله تعالى: { وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ }^(٢)).

ويقول السيوطي: (وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ }، قال: أهلك القرون واستخلفنا فيها من بعدهم { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } قال في الرزق وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله: (جعلكم خلائف الأرض قال يستخلف في الأرض قوماً بعد قوم، وقوماً بعد قوم. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مقاتل في قوله تعالى { وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } يعني في الفضل والغني { لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ }، يقول ليبتلبيكم فيما أعطاكم؛ ليبلوا الغني والفقير، والشريف والوضيع، والحر والعبد)^(٣)

يقول القرطبي في قوله تعالى: { إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ } لمن عصاه، و(أنه لغفور رحيم) لمن أطاعه. وقال سريع العقاب، مع وصفه سبحانه بالمهاد، ومع أن عقاب الله في الآخرة؛ لأن كل آت قريب، فهو سريع على هذا كما قال تعالى: { وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ } ويكون أيضاً سريع العقاب لمن استحقه في دار الدنيا، فيكون تحذيراً لمواقع الخطيئة على هذه الجهة.

ويقول الشوكاني: ثم خوفهم فقال { إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ } قال وإن كان في الآخرة فكل آت قريب. ثم رغب من يستحق الترغيب من المسلمين، فقال: (وأنه لغفور رحيم) أي: كثير الغفران والرحمة وأخرج ابن حاتم عن ابن عباس في قوله (لا تزر وازرة وزر أخرى)، قال لا يؤخذ أحد بذنب غيره^(٤). يقول ابن عطية: في قوله: { إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ } وسرعة عقابه في الدنيا وأما لعقاب الآخرة وحسن أن يوصف عقاب الآخرة بالسريع لما كان متحققاً مضمون الأتيان والوقوع. فكل آت يحمك عليه بالقرب ويوصف به. (وأنه لغفور رحيم) ترجية لمن أذنب وأراد التوبة. وهذا في كتاب الله تبارك وتعالى كثير اقتران الوعيد بالوعد ولطفاً من الله سبحانه وتعالى بعباده^(٥).

(١) سورة الزخرف - الآية: "٦٠".

(٢) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج ٣ - ص ٤٢٩.

(٣) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي - الدر المنثور في التفسير بالمأثور - دار الفكر - بيروت - ط ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م - ج ٣ - ص ٤١١.

(٤) الطبري - جامع البيان - ج ٥ - ص ٨٥.

(٥) ابن عطية - المحرر الوجيز - ج ٥ - ص ٤٢١.

يقول الطبري أيضا في تفسيرها: يقول تعالى ذكره الله الذي جعل هؤلاء الكفرة به له الجنّ شركاء وخرقوا له بنين وبنات بغير علم بديع السماوات والأرض يعني مبتدعها ومحدثها وموجدها بعد أن لم تكن. ومن هذه الآية يتضح لنا أن من صفات الله تبارك وتعالى التنزه عن صاحبة والولد.

يقول الطبري: يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن ربك يا محمد لسريع العقاب لمن أسخطه بارتكابه معاصيه وخلافه أمره فيما أمره به ونهاه، ولمن ابتلى منه فيما منحه من فضله وطوله تولياً وإدباراً عنه مع إنعامه عليه وتمكينه إياه في الأرض كما فعل بالقرون السابقة وأنه لغفور لسائر ذنوب من ابتلى منه إقبالاً إليه بالطاعة عند ابتلائه إياه بالنعمة واختباره إياه بأمره ونهيه فعظم عليه فيها وتارك فضيحتها بها في موقف الحساب رحيم بتركه عقوبته على سالف ذنوبه التي سلفت بينه وبينه إذا تاب وأناب إليه قبل لقائه ومصيره إليه^(١)

ويقول ابن كثير كذلك في قوله تعالى { إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } ترهيب وترغيب أن حساباه وعقابه سريع لمن عصاه وخالف رسله (وإنه لغفور رحيم) ولمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خير وطلب. وقال محمد ابن اسحق: يرحم العباد علي ما فيهم- رواه أبو حاتم وكثيراً ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتيت الصفتين، كما قال تعالى وقوله تعالى: { نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ } { ٤٩ } (٤). وقوله تعالى: { وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ } { ٦ } (١). وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب فتارة يدعوا عباده إليه بالرغبة وصفة للترغيب فيما لديهم، وتارة يدعوه إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا.

وهذا لينجع كل بحسه. جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقته فيما أخبر، أنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب. وقد قال الإمام أحمد حدثنا زهير عن العلاء عن ابيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بالجنة أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون)^(٢). وعنه أيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي) وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: (جعل الله الرحمة مائة فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه). رواه مسلم^(٣).

ويقول سيد قطب في تفسير الآية: (فقل ربكم ذو رحمة واسعة بنا وبمن كان مؤمناً من عباده وبغيرهم من خلقه فرحمته سبحانه وتعالى تسع المحسن والمسيء وهو لا يعجل علي من استحق العقاب حلماً منه ورحمة.

(٦) سورة الحجر - الآية: "٤٩".

(١) سورة الرعد - الآية: "٦".

(٢) صحيح مسلم بشرح الإمام النووي - باب خلق الله مائة رحمة - حديث رقم (٢٧٥٢) - ص ٦٨.

(٣) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج ٣ - ص ٤٢٩.

فان بعضهم قد يتوب إلى الله، ولكن بأسه شديد لا يرده عن المجرمين إلا حلمه، وما قدره من إمهالهم إلى أجل مرسوم، وهذا القول فيه من الأطماع في الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالأس، والله الذي خلق قلوب البشر يخاطبها هذا وذاك لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب. وعندما يصل السياق إل هذا الحد من تضيق الخناق عليهم وسد الذرائع في وجوههم يواجه مهربهم الأخير الذين يميلون عليه بشركهم وضلال تصوراتهم أنهم يقولون أنهم مجبرون لا مخبرون فيما اعتنقوا من شرك وضلال. فلو كان إله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء^(٤).

(والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية وارشاد.

روي أن هذه الآية لما نزلت أشفق منها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم ليست كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه: (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) ، هكذا الإيمان مصدر الأمان، ويكون المؤمن آمناً على رزقه، أن يفوت، فإن الأرزاق في ضمان الله الذي لا يخلف وعده ويضيع عبده ، وقد خلق الأرض مهاداً ووعد عباده بكفالة الأرزاق ، وعداً كرّره وأكد وأقسم عليه.

كما إن العمل الصالح لا بد له من قاعدة أصيله يرتكز عليها، ألا وهي قاعدة الإيمان بالله ، وهي المحور الذي تشدّ إليه الخيوط جميعاً وإلا فهي أنكاث فالعقيدة هي التي تجعل للعمل الصالح باعثاً وغاية ، فتجعل الخير أصلاً ثابتاً يستند إلى أصل كبير، ولا يميل مع الشهوات والأهواء حيث تميل، وأن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض.

ومن تفسير الآيات نجد أن أسلوب الترغيب جاء في سورة الأنعام ليقود العباد إلى عبادة الله تعالى حتى لا يقعوا في فساد العقيدة فيضلوا، وقد طرح لهم مسألة السلامة والعافية، وهي جنة السلام، محفزاً إياهم من خلال اسم الجنة بأنهم سيسلمون من ويلات يوم القيامة بدخولهم الجنة ، ثم أنه تعالى رغبهم من خلال تبين طريق الجنة الذي بصرهم به بالطرق المتواصل في هذه السورة لمسألة التوحيد وعبادة الله^(٥) ، وكذلك حذرهم من مغبة عدم ذلك وأن مهمة الرسل تنتهي عند هذا الحد. ويجتمع في الآية الواحدة من هذه السورة أسلوب الترغيب والترهيب معاً، لتأكيد قرب المسافة بين التوحيد والشرك، والجنة والنار،

والرحمة الواسعة، والبأس الشديد كل حسب مقتضاه وذلك بعد أن بعث الله الرسل وأنزل الآيات، ولم يبق إلا استجابة العباد أو إعراضهم؛ ليكون بعد ذلك الثواب والعقاب.

(٤) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٣ - ص ١٢٢٦.

(٥) الباحثة.

المبحث الثالث

أسلوب الترهيب

المطلب الأول: الترهيب من الانحراف العقدي.

قال تعالى: { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } {٣٧} (١).

قال تعالى: { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } {٣٩} (٢).

قال تعالى: { فَفُطِحَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } {٤٥} { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَنَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَن إِلَهَ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذَقُونَ } {٤٦} { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } {٤٧} { وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَن آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } {٤٨} (٣).

قال تعالى: { وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } {٩٣} (٤).

قال تعالى: { وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ } {١٢٤} (٥).

قال تعالى: { وَكَذَٰلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } {١٢٩} (٦).

قال تعالى: { ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } {١٣١} (٧).

قال تعالى: { فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } {١٤٧} (٨).

(١) سورة الأنعام - الآية: "٣٧" ..

(٢) سورة الأنعام - الآية: "٣٩".

(٣) سورة الأنعام - الآيات: "٤٥-٤٨".

(٤) سورة الأنعام - الآية: "٩٣".

(٥) سورة الأنعام - الآية: "١٢٤".

(٦) سورة الأنعام - الآية: "١٢٩".

(٧) سورة الأنعام: الآية "١٣١".

(٨) سورة الأنعام - الآية: "١٤٧".

جاء لفظ الترهيب في بعض سور القرآن بمثابة التهديد والوعيد والتخويف من عذابه عزّ وجلّ، أو بالحرمان من خيري الدنيا والآخرة، أو بالعذاب في الدنيا والآخرة لمن يعرض عن داعي الله سبحانه وتعالى، ويسلك طريق الضلال حيث يردى به إلى جهنم وسوء العذاب قال تعالى: { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدِ } (٤٥) (٩).

وفي قول الزمخشري في تفسير الآية (أرايتكم) أخبروني، (إن أتاكم عذاب الله أو أنتكم الساعة) من تدعون من دون الله، (بل إياه تدعون) بل تخصصونه بالدعاء دون الآلهة، (فيكشف ما تدعون إليه) أي ما تدعونه إلى كشفه (إن شاء) إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة، (وتنسون ما تتركون) وتتركون آلهتكم أو لا تذكرونها في ذلك الوقت؛ لأنّ أذهانكم في ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده، إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره، ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أغير الله تدعون، كأنه قيل: أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله، فإن قلت إن علقت الشرط به فما تصنع بقوله - فيكشف ما تدعون إليه - مع قوله - أو أنتكم الساعة - وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين؟ قلت: قد اشترط في الكشف المشيئة وهو قوله إن شاء إيداناً بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه. البأساء والضراء: البؤس والضر وقيل

البأساء القحط والجوع، والضراء المرض ونقصان الأموال والأنفس. والمعنى: ولقد أرسلنا إليهم الرسل فكذبوهم فأخذناهم، (لعلهم يتضرعون) يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم، (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) معناه نفي التضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذا جاءهم بأسنا، ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم، (فلما نسوا ما ذكروا به) من البأساء والضراء: أي تركوا الاعتاط به ولم ينفع فيهم ولم يزرهم، (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) من الصحة والسعة وصنوف النعمة ليزواج عليهم بين نوبتى الضراء والسراء، كما فعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلطفه أخرى؛ طلباً لإصلاحه (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) من الخير والنعم، لم يزيدوا على الفرح والبطر من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار؛ (أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) واجمون متحسرون آيسون (فقطع دابر القوم) آخرهم لم يترك منهم أحد قد استؤصلت شأفتهم، (والحمد لله رب العالمين) إيدان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجل النعم وأجزل القسم (إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم) بأن يصممكم ويعمىكم، (وختم على قلوبكم) بأن يغطى عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم، (يأتىكم به) أخذ وختم عليه (يصدفون) يعرضون عن الآيات بعد ظهورها لما كانت البغته أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته، قيل (بغته أو جهرة) وعن الحسن ليلاً أو نهاراً وقُرئ بغته أو جهرة، (هل يهلك) أي ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون (مبشرين ومنذرين) من آمن بهم وبما جاءوا به وأطاعهم ومن كذبهم وعصاهم ولم يرسلهم ليتلهم بهم، ويقترح عليه الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة (وأصلح) ما يجب عليه إصلاحه مما كلف، جعل العذاب ماساً كأنه حي يفعل بهم ما يريد من الآلام، أي لا أدعى ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله، وهي قسمة بين الخلق وإرزاقه وعلم الغيب،

(٩) سورة ق - الآية: "٤٥".

وأني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه: أي لم أدمع إلهية ولا ملكية؛ لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة حتى تستبعدوا دعواي وتستنكرونها ، وإنما ادعى ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوة.

وفي سورة الأنعام جاءت آيات الترهيب بغرض تصحيح العقيدة وتبيين وحدانية الله عز وجل وعدم الإشراف به، وما يترتب على الاعتقاد الخاطئ من هلاك وسوء عاقبة، على النحو التالي:

قوله تبارك وتعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ } (٩٣) (١).

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية يقول الله تعالى: { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شريكاً أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس، ولم يكن أرسله ولهذا قال تعالى: { أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ } قال عكرمة وقتادة نزلت في مسيلمة الكذاب (١).

أما الذي قال سأنزل مثلما أنزل الله أو قال أوحى إلي كذالك، ففي رواية عن ابن عباس أنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان أسلم وكتب الوحي لرسول الله صلي الله عليه وسلم، وأنه لما نزلت الآية التي في المؤمنين { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ } (١٢) (٢). دعاه النبي صلي الله عليه وسلم فأملأها عليه. فلما انتهى إلى قوله تعالى { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ } عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال: { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }.

قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: (هكذا أنزلت عليّ)، فشكَّ عبد الله حينئذٍ وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال، فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين. وذلك قوله: { وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ } (رواه الكلبي عن ابن عباس) والمشهد الذي يرسمه السياق في جزاء هؤلاء الظالمين، أي المشركين مشهد مفزع مرعب، مكروب، مرهوب. الظالمون في غمرات الموت وسكراته. ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون أرواحهم للخروج وهم يتابعونهم بالتأنيب (٣).

يقول الفخر الرازي وأما قوله تعالى: { وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ } فأعلم أن أول الآية هو قوله { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا } يفيد التخويف العظيم على سبيل الإجمال وقوله بعد ذلك { وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ } كالتفصيل لذلك المجلد والمراد بالظالمين الذين ذكرهم، وغمرات الموت جمع غمرة وهي شدة الموت،

(١) سورة الأنعام - الآية: "٩٣".

(٢) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج ٣ - ص ٣٤٠.

(٣) سورة المؤمنون - الآية: "١٢".

(٣) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٢ - ص ١١٤٩.

وغمرة كل شيء كثرته ومعظمه، ومنه غمرة الماء وغمرة الحرب، ويقال غمرة بالشيء إذا علاه وغطاه قال الزجاج: يقال من كان في شيء كثير قد غمره ذلك^(١).

يقول القرطبي وغمرات الموت شدائده. {وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ} ابتداء وخبر والأصل باسطون. قيل: بالعذاب ومطارق الحديد، عن الحسن والضحاك. وقيل لقبض أرواحهم، وفي التنزيل { وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ } {٥٠} (٢). فجمعت هذه الآية القولين. يقال: بسط إليه يده بالمكروه (أخرجوا أنفسكم) أي: خلصوها من العذاب أن أمكنكم، وهو توبيخ وقيل أخرجوها كرهاً، لأن روح المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه، وروح الكافر تنتزع انتزاعاً شديداً. ويقال: أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله وهو أنه، كذا جاء في حديث أبي هريرة وغيره. وقيل هي بمنزلة قول القائل لأذيقنك العذاب، ولأخرجن نفسك، وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها ملك الموت وأعوانه. وقيل يقال هذا للكفار وهم في النار. والجواب محذوف لعظم الأمر، أي ولو رأيت الظالمين في هذا الحال لرأيت عذاباً عظيماً. والهون والهوان سواء، (وتستكبرون) أي تتعظمون عن قبوله آياته^(٣).

ويقول سيد قطب: إنه المشهد الذي يهز القلب البشري هزاً عنيفاً، وهو يشخص ويتحرك ويلقي ظلاله على النفس، ويسكب إحياءاته في القلب و ظلاله المرعبة المكروبة وإحياءاته العنيفة المرهوبة^(٤). في هذه الآية ترهيب للذين ظلموا.

وتتواصل الآيات في تنوع موضوعي ترعب وترهب: قال تعالى: { وَإِذَا جَاءَتْهُمْ دَابَّةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَا حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلَ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ }.

قال تعالى: { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَابٍ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ } {٦٥} (١).

يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائهم المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر، أي.....العامين في هذه المهام البرية وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له، كقوله تعالى: { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرَبُ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ }

فهو قادر على ذلك كله ، فاحذروا من الإقامة على معاصيه ، فينجيكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم ، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك، ولكن من رحمته أن يرفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب ونحوه ،

(١) الفخر الرازي ، محمد الرازي - التفسير الكبير ومفاتيح الغيب - دار الفكر - بيروت - ط١٤١٥هـ، ١٩٩٥م - ج ٧ - ص ٩٠

(٢) سورة الأنفال - الآية: "٥٠".

(٣) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - ج ٧ - ص ٤٢.

(٤) سيد قطب - في ظلال القرآن - ج ٢ - ص ١١٥٠.

(١) سورة الأنعام - الآية: "٦٥".

ومن تحت أرجلكم بالخسف، ولكن عاقب من عاقب منهم بان أذاق بعضهم بأس بعض وسلط عليهم عقوبة عاجلة يراها المعتبرون ، ويشعر بها العاملون^(١).

المطلب الثاني: حال الكفار يوم القيامة:

لقد تنوع أسلوب الترهيب في خطاب الكفار على مختلف الأحوال والظروف؛ فنراه يصف حال الكفار يوم البعث، وتارة يرهب الكفار، من الإنس وأشيعاهم من الجن، ومرة أخرى ترهب الآيات من الانغماس في ملذات الحياة الدنيا على النحو التالي:

وفي قوله قال تعالى: { وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } {٢٧} بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } {٢٨} وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ } {٢٩} وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } {٣٠} ^(١).

قال تعالى: { فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } {٣٠} وَقَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمَلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ } {٣١} وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {٣٢} ^(٢).

قال تعالى: { قُلِ اللَّهُ يُحِبُّكُمْ مِّنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ } {٦٤} ^(٣).

وجاء في تفسير الزمخشري للآية (الذين أتيناهم الكتاب) يعنى اليهود والنصارى، (يعرفونه) يعرفون رسول الله صلي الله عليه وسلم بحليته وبعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة، (كما يعرفون أبناءهم) بحلاهم ونوعتهم، لا يخفون عليهم ولا يلتبسون بغيرهم ، وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته ، ثم قال: (الذين خسروا أنفسهم) من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين،(فهم لا يؤمنون) به ، جمعوا بين أمرين متناقضين ، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح حيث قالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، وقالوا والله أمرنا بها ، وقالوا والملائكة بنات الله وهؤلاء شفاعونا عند الله ، ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات، وسموها سحراً ، ولم يؤمنوا بالرسول صلي الله عليه وسلم (ويوم نحشروهم) ويوم نحشروهم كان كيت وكيت ، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف، (أين شركاؤكم) أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله^(٤) وقوله (الذين كنتم ترعمون) معناه ترعمونهم شركاء إنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ ، ويجوز أن يشاهدوهم، إلا أنهم حين لا ينفعونهم، ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة فكأنهم غيب عنهم ، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ،

(٢) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ٢٧.

(١) سورة الأنعام - الآيات: "٢٧-٣٠".

(٢) سورة الأنعام - الآيات: "٣١-٣٢".

(٣) سورة الأنعام - الآية: "٦٤".

(٤) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ٢٦.

ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها؛ فيروا مكان خزيهم وحسرتهم (فتنتهم) كفرهم ، والمعنى: ثم لم تكن عاقبة كفرهم الذي لزموه أعمارهم وقاتلوا عليه واقتخروا به وقالوا دين آبائنا لا جوده والتبرؤ منه، والحلف على الانتقاء من التدين به ، ويجوز أن يراد: ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا ، فسمي فتنة لأنه كذب.

ويتواصل تفسير الزمخشري للآية: (وضل عنهم) وغاب عنهم، (ما كانوا يفترون) أي يفترون الهيئة وشفاعته. فإن قلت: كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟ قلت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشا؛ ألا تراهم يقولون ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإننا ظالمون، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك وقد علموا أنه لا يقضي عليهم ، وأما قول من يقول معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا ، وحل قوله انظر كيف كذبوا على أنفسهم: يعني في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفسح الكلام إلى ما هو عيِّ وإفحام ، لأنَّ المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمرجم عنه ولا منطبق عليه، وهو نابٍ عنه أشد النبوة، وما أدري ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى – يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شئٍ ألا إنهم هم الكاذبون – بعد قوله – ويحلفون على الكذب وهم يعلمون – فشيبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا، (ومنهم من يستمع إليك) حين تتلوا القرآن روي أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وإضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: والذي جعلها بيته: يعني الكعبة ، ما أدري ما يقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين مثل ما حدثتكم عن القرون الماضية فقال أبو سفيان: إني لأراه حقاً ، فقال أبو جهل: كلا فنزلت. والأكنة على القلوب والوقر في الأذان مثل في نبي قلوبهم ومسامعهم عن قبوله واعتقاد صحته ووجهه^(١).

وقوله يقول الذين كفروا تفسر (هل) والمعنى: أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك وينكرونك ، وفسر مجادلتهم بأنهم يقولون (إن هذا إلا أساطير الأولين) فيجعلوا كلام الله وأصدق الحديث خرافات وأكاذيب، وهي الغاية في التكذيب، (وهم يبهون) الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام وأتباعه ويثبطونهم عن الإيمان به، (ويأون عنه) بأنفسهم فيضلون ويضلون (وإن يهلكون) بذلك، (إلا أنفسهم) ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم وإن كانوا يظنون أنهم يضررون رسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه ولا يؤمن به. ورؤي أنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوء^(١).

فنزلت (ولو تري) (وقفوا على النار) يقول الزمخشري أروها حتى يعاينوها أو اطلعوا عليها اطلاعا هي تحتهم ، أو أدخلوها فعرفوا مقدرًا عذابها (يا ليتنا نرد) تم تمنيههم، ثم ابتدأوا (ولا تكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) واعدن الإيمان كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات ، وشبهه سيبويه بقولهم دعني ولا أعود بمعنى: دعني وأنا لا أعود تركنتي أو لم تتركني ويجوز أن يكون معطوفاً على نرد، أو حالاً على معنى يا ليتنا نرد غير مكذبين وكانين من المؤمنين، فندخل تحت حكم التمني.

(١) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف – دار الفكر للطباعة والنشر – ص ٢٧.

(١) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف – دار الفكر للطباعة والنشر – ص ٢٢.

فإن قلت: يدفع ذلك قوله: (وإنهم لكاذبون) لأنّ المتمني لا يكون كاذباً؟ قلت: هذا تمّن قد تضمن معنى العدة فجاز أن يتعلق به التكذيب كما ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم؛ فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً ، لا أنهم عازمون على أنهم لو ردوا لأمنوا ، وقيل هو في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه ، وقيل هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلي الله عليه وسلم، ولو ردوا إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار، (لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والمعاصي، (وإنهم لكاذبون) فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به (وقالوا) عطف على لعادوا: أي ولو ردوا لكفروا ولقالوا (إن هي إلا حياتنا الدنيا) كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة. ويجوز أن يعطف على قوله وإنهم لكاذبون على معنى: وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء ، وهم الذين قالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا ، وكفي به دليلاً على كذبهم (وقفوا على ربهم) مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده؛ ليعاتبه ، وقيل وقفوا على جزاء ربهم ؛ وقيل عرفوه حق التعريف (قال) مردود على قول قائل قال: ماذا قال لهم ربهم إذا وقفوا عليه؟ فقيل قال: (أليس هذا بالحق) وهذا تعبير من الله تعالى لهم على التكذيب ، وقولهم لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء ما هو بحق وما هو إلا باطل، (بما كنتم تكفرون) بكفركم بقاء الله ببلوغ الآخرة، وما يتصل بها ، وقد حقق الكلام فيه في مواضع آخر ، و(حتى) غاية لكذبوا لا لخسر لأنّ خسراتهم لا غاية له: أي ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة فإن قلت: أما يتحسرون عند موتهم ؟ قلت: لما كان الموت وقوعاً في أحوال الآخرة ومقدماتها جعل من جنس الساعة وسمي باسمها ولذلك قال رسول الله صلي الله عليه وسلم " من مات فقد قامت قيامته" أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعة كالأوقع بغير فترة.

وقد يتصف المشركين بالحسرة والندم ففي الآية (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) يقول الزمخشري (بغتة): فجأة وانتصابها على الحال بمعنى باغته ، أو إلى المصدر كأنه قيل بغتتهم الساعة بغتة، (فرطنا فيها) الضمير للحياة الدنيا جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذلك؛ لكونها معلومة ، أو للساعة على معنى قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها كما تقول: فرطت في فلان ، ومنه فرطت في جنب الله (يحملون أوزارهم على ظهورهم) كقوله: فيما كسبت أيديكم؛ لأنه أعتيد حمل الأثقال على الظهر، كما أُلّف الكسب بالأيدي، (ساء ما يزررون) بسئ شيناً يزررون وزرهم كقوله: أخطأ ثقة لا تهلك الخمر ماله... ولكنه قد يهلك المال الذي هو نائله^(١).

ويذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا عظامها وأهوالها ، فعند ذلك قالوا: { وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } (٢٧).^(٢) أي تمنوا، لو رجعوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ، ولا يكذبوا بآيات ربهم ، بل يؤمنوا بها ، فكذبهم الله تعالى فقال سبحانه: (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفونه من الكفر في أنفسهم فأنهم ما طلبوا العودة إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان ، بل خوفاً مما عاينوا من العذاب ، جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ،

(١) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ١٣ .

(٢) سورة الأنعام - الآية: "٢٧".

ولهذا قال تعالى: (ولو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان، ثم أخبر أنهم لو رُدوا لعادوا إلى كفرهم ومخالفتهم وقولهم: إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ثم قال تعالى: (ولو تري إذ وقفوا على ربهم) أي وقفوا بين يديه، قال عز وجل: (أليس هذا بالحق) أي أليس هذا المعاد بحق؟ وليس يباطل كما ظننتم؟. (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أي بما كنتم تكذبون فذوقوا اليوم مسه^(١).

ويخبر الله تعالى عن خسارة من كذب بلفائه، ومن خبيته لما فاجأته الساعة وعن ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعل؛ ولهذا قال تعالى (وحتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) أي على ما فرطنا في الدنيا من الأعمال المغضبة لله سبحانه وتعالى، (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون) أي يحملون قال ابن أبي حاتم عن أبي مرزوق: يستقبل الكافر والفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صورته وأنتنها ربحاً - فيقول من أنت، فيقول أو ما تعرفني، فيقول: لا والله، إلا أن الله تعالى قبح وجهك، وأنتن ربحك فيقول: أنا عمك الخبيث هكذا كنت في الدنيا خبيث العمل منتنة فطالما ركبتني في الدنيا، هلم أركبك، فهو قوله تعالى: (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أي إنما غالب الحياة الدنيا كذلك، (والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون)^(٢).

المطلب الثالث: ترهيب الجن والإنس معاً:

ويتسع الخطاب ليشمل الجن والإنس معاً كما في قوله تعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يُفْصِنُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ } (١٣٠)^(١).

{ ١٢٣ } وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلَ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ } (١٢٤)^(٢).

يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ } أي يوم نحشرهم تقول ألم يأتكم رسل، فحذف، فيعترفون بما فيه افتضاحهم ومعني {منكم} في الخلق والتكليف والمخاطبة. ولما كانت الجن ممن يخاطب ويعقل قال {منكم}، أو إن كانت الرسل من الإنس وغلب الإنس في الخطاب كما يغلب المذكر على المؤنث وقال ابن عباس: رسل الجن هم الذين بلغوا قومهم ما سمعوه من الوحي كما قال تعالى: { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبْنَا فَأَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ } (٢٩)^(٣) وقال مقاتل والضحاك: أرسل الله رسلاً من الجن كما أرسل من الإنس.

(١) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد)، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ١٤.

(٢) سورة الأنعام - الآية: "٣٢".

(١) سورة الأنعام - الآية: "١٣٠".

(٢) سورة الأنعام - الآية: "١٢٤".

(٣) سورة الأحقاف - الآية: "٢٩".

وقال مجاهد: الرسل من الإنس، والنذر من الجنّ ثم قرأ {ولوا إلى قومهم منذرين} وهو معني قول ابن عباس وهو الصحيح. وقال الكلبي كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلي الله عليه وسلم يبعثون إلى الإنس والجنّ جميعاً^(٤).

يقول ابن كثير وقال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ }^(٥). فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: أن النبوة كانت في الجنّ قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنه ببعثه^(٦) وقالوا شهدنا على أنفسنا أي شهدنا أنهم بلغوا {وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} قيل: هذا خطاب من الله للمؤمنين، أي أن هؤلاء قد غرتهم الحياة الدنيا أي خدعتهم وظنوا أنها تدوم، وخافوا زوالها عنهم أن آمنوا. (وشهدوا على أنفسهم) أي اعترفوا بكفرهم. قال مقاتل: هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك^(١).

يقول الله تعالى (ظلمات البر والبحر) مجاز عن مخاوفها وأهوالها ، يقال لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب: أي اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ويجوز أن يراد ما يشفقون منه من الخسف في البر، والغرق في البحر بذنوبهم ، فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق، فنجوا من ظلماتها (لئن أنجيتنا) على إرادة القول، (من هذه) من هذه الظلمة الشديدة. وفري ينجيكم بالتشديد والتخفيف وأنجانا، وخفية بالضم والكسر، (هو القادر) هو الذي عرفتموه قادراً وهو الكامل فقدره (عذاباً من فوقكم) كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان، (أو من تحت أرجلكم) كما أغرق فرعون وخسف بقارون ، وقيل من فوقكم من قبل أكابركم وسلطينكم ، ومن تحت أرجلكم من قبل سفاتكم وعبيدكم ، وقيل هو حبس المطر والنبات، (أو يلبسكم شيعاً) أو يخالطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام ، ومعنى خطمهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال.

وعن رسول الله صلي الله عليه وسلم "سألت الله ألا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني ، وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف"، وعن جابر بن عبد الله " لما نزل من فوقكم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: أعود بوجهك ، فلما نزل أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً قال: (هاتان أهون) ومعنى الآية الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة. والضمير في قوله (وهو الحق) أي لا بد أن ينزل بهم (قل لست عليكم بوكيل) بحفيظ وكل إلى أمركم أنمنكم من التكذيب إجباراً إنما أنا منذر، (لكل نبأ) لكل شيء نبأ به: يعني إنباءهم بأنهم يعذبون وإبعادهم به، (مستقر) وقت استقرار وحصول لا بد منه ، وقيل الضمير في به للقرآن، (يخوضون في آياتنا) في الاستهزاء بها والطعن فيها ، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك فأعرض عنهم (حتى يخوضوا في حديث غيره) فلا يأمن أن تجالسهم حينئذ (وإما ينسينك الشيطان) وإن شغلك بوسوسته حتى تنسي النهي عن مجالستهم فلا تقعد معهم (بعد الذكرى) بعد أن تذكر النهي^(١).

(٤) القرطبي - تفسير القرآن العظيم - ج ٣ - ص ٨٦.

(٥) سورة العنكبوت - الآية: "٢٧".

(٦) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج ٣ - ص ٥٠.

(١) القرطبي - الجامع لأحكام القرآن - ج ٧ - ص ٨٧.

(١) ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - ج ٣ - ص ٥٠.

وفي قوله تعالى: { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } (١٢٨) (١).

يقول الطبري في تفسيره: (ويوم يحشرهم جميعاً) ، (يا معشر الجن) المراد: حشر جميع الخلق في يوم القيامة، والحشر: الجماعة أي يوم الحشر، يقول: يا جماعة الجن (قد استكثرت من الإنس) أي من الاستمتاع بهم كقوله، (ربنا استمتع بعضنا ببعض) وقيل: استكثر الأمير من الجنود، والمراد التفرغ والتوبيخ، وعلى الأول فالمراد بالاستمتاع التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم ودخولهم فيما يريدون منهم، استكثرت من إغوائهم وإضلالهم حتى صاروا في حكم الأتباع لكم فحشرناهم معكم: (وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض) أما استمتاع الجن والإنس فهو ما تقدم من تلذذهم بإتباعهم لهم وأما استمتاعهم بالجن ، وقيل استمتاع الإنس بالجن انه كان إذا مر الرجل بواد في سفره وخاف على نفسه، قال: أعوذ برب هذا الوادي من جميع ما أخطر عليّ من الجن، ومنه قوله تعالى: { وَأَنَّهُ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَخَبِيرٌ عَلَيْهِ } (٤) { وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَنَا تَفْوُلَ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً } (٥) { وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنَّ فَزَادَهُمْ رَهَقاً } (٦) (٣). وقيل استمتاع الجن بالإنس أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون إليهم من الأكاذيب وينالون بذلك شيئاً من حظوظ الدنيا كالكهان، (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) أي يوم القيامة اعترافاً منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به، مما كانوا يكذبون به، ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم (خالدين فيها إلا ما شاء الله) المعنى الذي تقتضيه لغة العرب في هذا التركيب أنهم يخلدون في النار في كل الأوقات، إلا في الوقت الذي يشاء الله عدم بقائهم فيها، وقال الزجاج: إن الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة أي خالدين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم في قبورهم، ومقدار مدتهم في الحساب، وهو تعسف؛ لأن الاستثناء هي من الخلود الدائم ولا يصدق علي من لم يدخل النار (٤).

(ويوم نحشرهم) أي واذكر يوم نحشرهم، أو ويوم نحشرهم قلنا يا معشر الجن) أو يوم نحشرهم قلنا: يا معشر الجن كان ما لا يوصف لفظاً وضميراً من الثقلين وغيرهم. والجن هم الشياطين (قد استكثرت من الإنس) أضللتهم منهم كثيراً أو جعلتموهم أتباعكم فحشر معكم منهم الجمع الغفير؛ كما تقول: استكثر الأمير من الجنود. واستكثر فلان من الأشياء، (وقال أولياؤهم من الإنس) الذين أطاعوهم واستمعوا إليهم وسوستهم، (ربنا استمتع بعضنا ببعض) أي انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى أسباب التوصل إليها وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهواتهم في إغوائهم. وقيل استمتاع الإنس بالجن ما في قوله – وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن- يعني به كبير الجن، واستمتاع الجن بالإنس اعتراف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم ، (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) يعنون يوم البعث ، وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين وإتباع الهوى والتكذيب بالبعث واستسلام لربهم وتحسر على حالهم ، (خالدين فيها إلا ما شاء الله) أي يخلدون في عذاب النار الأبدية كله إلا ما شاء الله ، إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير ، فقد روي أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير، ويميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاونون ويطلبون الرد إلى الجحيم ، أو يكون من قول الموتور

(٢) سورة الأنعام – الآية: "١٢٨".

(٣) سورة الجن – الآية: "٦".

(٤) الطبري – جامع البيان – ج ٥ – ص ٥٢.

الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابة وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه: أهلكني الله إن نفست عنك إلا إذا شئت ، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد ، فيكون قوله إلا إذا شئت من أشد الوعيد، مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه أطماع. (إن ربك حكيم) لا يفعل شيئاً إلا بموجب الحكمة، (عليم) بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد، (تولى بعض الظالمين بعضاً) نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضاً، كما فعل الشياطين وغواة الإنس ، أو نجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا في الدنيا، (بما كانوا يكسبون) بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي ، يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ (ألم يأتكم رسل منكم)^(١).

المطلب الرابع: الترهيب من طلب الدنيا:

نمّ الله تعالى طلب الدنيا في الآية من سورة الأنعام { وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }^(١). يقول الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين (الحمد لله الذي عرف أوليائه غوائل الدنيا وأفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدا وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعملوا أنه يزيد منكرها على معروفها^٢، ولا يفي مرجوها بمخوفها. ويقول ما باعث لذات الحياة التي أدنيت لكم وقربت لكم في داركم هذه ونعيمها وسرورها فيها) والمتلذذ بها والمنافسة عليها ما هو إلا لعب ولهو، لأنّها عمل قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ منها بملذاتها^(٣).

ويقول إن العمل بطاعته ، والاستعداد للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تبقي منافعتها لأهلها. ويدوم سرور أهلها فيها؛ خير من الدار التي تفنى للذين يتقون وللذين يخشون الله يتقونه بطاعته، واجتناب معاصيه، والمسارعة إلى رضاه (أفلا تعقلون) خطاب مستأنف للمؤمنين؛ تحذيراً لهم من أن تغرهم زخارف الدنيا وتلهيهم عن العمل للآخرة^(٢).

نجد أن الترهيب في سورة الأنعام جاء لينذر الناس عن مغبة الشرك بالله وما يجدونه حين الموت من الادعاء على الله والاجترأ عليه، بأنه تعالى أوحى إليه ، وقد صور هذا المشهد بالآية من السورة أيما تصوير حتى يتبع الذين يفترون على الله الكذب والذين يعرضون مستكبرين عن توحيده رغم نزول الآيات وكذلك حال المعاندين من الكفار والذين يشترطون على الله بأنهم لن يؤمنوا حتى ينزلوا منزلة الرسل فكان أن جازاهم تعالى نتيجة هذا، وطلبهم منزلة ليست من حقهم بأن أصابهم الذل والهوان، وصغرت مكانتهم عندهم، وأنزلهم منزلة العذاب الشديد مع الإهانة لهم.

ثم تنتقل بنا آيات سورة الأنعام لتعكس لنا صورة أكثر رهبة ليوم القيامة وذلك بعد أن تجاوز بنا مرحلة رهبة خروج الروح عند موت الملحد لوحيدانية الله تعالى، فتقدم لنا مشهد الكفار وهم في يوم الفزع الأكبر، وقد تم حسابهم وصدر عقابهم، وتمت إحالتهم إلى النار، والمشهد رهيب، وأسوأ ما فيه الحسرة التي هي لسان حال الذين استكبروا عن عبادة الله وأعرضوا عن آياته، وبات أنه لا رجعة في الأمر، وغلبت عليهم الندامة؛

(١) الطبري - جامع البيان - ج ٥ - ص ٩١.

(٢) سورة الأنعام - الآية: "٣٢".

(٣) الإمام الغزالي - إحياء علوم الدين - ج ٣ - ص ٩٠.

(٤) جامع البيان/٥/١٧٨ والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٩١/٤

ذلك أنهم لم يقدرُوا حجم جرمهم الذي بدأت عاقبتهم فوق تصورهم الناقص، وقد أتتهم الآيات إلا أنهم استهانوا بها ووجدوا وهم يتمنون ما لا يمكن أن يتحقق لهم فتمنوا أن لو عادوا إلى الدنيا ليؤمنوا ويلتزموا بما نهوا عنه، إلا أن القرآن الكريم يدحض زعمهم هذا بأن يؤكد لهم أنهم لو أعطوا فرصة العودة إلى الحياة الدنيا ليؤمنوا، فإنهم سيقولون نفس الشيء منكرين وجود الله تعالى ويوم البعث، لذا ختم الله على حجتهم بأن أشار إلى عظيم الخسران الذي هم فيه من جراء تكذيبهم وحدانية الله وآياته^(١).

ثم تشير الآيات إلى عاقبة الانحراف في العقيدة بعبادة غير الله مثل الجنّ الذين أشركهم الكفار في عبادة الله، فكان أن خاطبهم الله بأسلوب واحد يشمل الجنّ والإنس، وبأن النار هي دارهم الخالدة؛ نتيجة لممارساتهم المشتركة في فساد العقيدة والشرك بالله، وقدم الجنّ في الخطاب على الإنس للدور الأعظم في مبادرة الجنّ بالإضلال للإنس، وأن شياطين الجنّ يوحون إلى شياطين الإنس غروراً وكذباً.

ثم تنتهي الآيات بتلخيص الحياة الدنيا بأنها لعبٌ ولهوٌ لا قيمة لها مقابل الدار الآخر، دار الخلود، وبما فيها من نعيم بتبشير الذين وحّدوا الله وعبّوه.

فيأتي السياق مُنفرداً من الانخراط في مجريات الحياة الدنيا وترك العمل للأخرة^(٢).

المبحث الخامس

أسلوب القصة

إبراهيم الخليل حجة التوحيد

تمثل قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وحظيت سورة الأنعام بأكبر مساحة للحوار الدرامي في مسألة العقيدة في حوارها مع نفسه من خلال تأملاته في الكون من حوله ومتابعته لحركة الكواكب وأقولها؛ باحثاً عن عقيدة سليمة يرتكز عليها وإله عظيم يعبده، ثم محاجاته مع قومه بدءاً من أبيه إلى الملك حاكمه لم تأخذه في ذلك لومه لأنهم، كل ذلك يعد من أساليب الخطاب العقدي في سورة الأنعام للدلالة على حقيقة التوحيد، وتصويب العقيدة الفاسدة في سورة الأنعام، وقد تم حشد كل البراهين المادية والعقلية والوجدانية، وكلّ أساليب التهكم والسخرية لإثارة الحراك الإيماني لتوحيد الله، وإبانة الحق من الباطل في مفهوم الاعتقاد، وقد احتل الحوار العقدي بين سيدنا إبراهيم وإبيه من جهة وقومه من جهة أخرى مساحة معتبرة في سورة الأنعام التي نزلت محفوفة بالآلاف الملائكة، كما يعدّ سيدنا إبراهيم من أبرز الرموز الداعية للتوحيد في هذه السورة وفي سورٍ أخرى من القرآن الكريم وتميز سيدنا إبراهيم عليه السلام من بين رسل الله بأشياء خصه الله بها، منها أنه سمي بالحنفية السحاء وأنه من المسلمين الدين الخاتم. وأنه أمة كما وصفه الله تعالى بذلك (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله).

(١) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد)، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ١٤.

(٢) الباحثة.

كما أن الله تعالى أعدّ سيدنا إبراهيم إعداداً خاصاً باتخاذ خليلاً، وأنه الحجة وهي التوحيد كما جزم بذلك المفسرون.

المطلب الأول: من هو إبراهيم الخليل:

جاء في تاريخ الطبري هو إبراهيم بن تارخ^(١) "٢٥٠" بن ناحور "١٤٨" بن ساروغ "٢٣٠" بن راغو "٢٣٩" ابن فالغ "٤٣٩" بن شالح "٤٣٣" بن أرفخشذ "٤٣٨" بن سام "٦٠٠" بن نوح عليه السلام^(٢).

هذا نص أهل الكتاب في كتابهم ، وقد عملت على أعمارهم تحت أسمائهم بالهندي كما ذكره من المدد وقدمنا الكلام على عمر نوح عليه السلام فأغنى عن إعادته.

وحكي الحافظ ابن عساكر في ترجمة إبراهيم الخليل من تاريخ ابن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب المبتدأ ، أن أسم أم إبراهيم " أميلة" ثم أورد عنه في خبر ولادتها له حكاية طويلة، وقال الكلبي: اسمها "بونا" بنت كربتا بن كرثي ، من بني أرفخشذ بن سام بن نوح.

وروي ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكني "أبا الضيفان"^(١).

قالوا: ولما كان عمر تارخ خمسا وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وناحور وهاران - وولد لهاران "لوط".

وعندهم أن إبراهيم عليه السلام هو الأوسط ، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها ، وهي أرض الكلدانيين، يعنون أرض بابل.

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار ، وصحّ ذلك الحافظ ابن عساكر ، بعد ما روي من طريق هشام بن عمار ، عن الوليد ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن مكحول ، عن ابن عباس قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق، في قرية يقال لها برزه ، في جبل يقال له قاسيون ثم قال: والصحيح أنه ولد ببابل. وإنما نسب إليه هذا المقام؛ لأنه صلي فيه إذ جاء معينا للوط عليه السلام^(٢).

قالوا: فتزوج إبراهيم سارة ، وناحور "ملكاً" ابنه هاران يعنون أبنة أخيه.

قالوا: وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه لوط بن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، فنزلوا حرّان فمات فيها تارخ، وله مائتان وخمسون سنة، وهذا يدلّ على أنه لم يولد بحران ، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهي أرض بابل وما والاها.

(١) م: تارخ وهو تحريف.

(٢) وفي تاريخ ابن عساكر (٢/١٣٧، ١٣٦/تهذيب) قال: إبراهيم بن آزار وهو تارخ بن ناحور بن شاروغ بن أرغو بن فالغ بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح ويكني بأبي الضيفان.

(١) ابن عساكر في تاريخه (٢-١٤١-تهذيب).

(٢) ابن عساكر (٢/١٣٧/تهذيب).

ثم ارتحلوا قاصدين أرض الكنعانيين ، وهي بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحران وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضاً. وكانوا يعبدون الكواكب السبعة. والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين ، يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال. ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ، ويعملون لها أعياد وقرابين^(١).

وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفار ، سوى إبراهيم الخليل وأمرأته وابن أخيه لوط عليه السلام.

وكان الخليل عليه السلام هو الذي أزال الله به تلك الشرور ، وأبطل به ذلك الضلال ، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رسده في صغره ، وابتعثه رسولاً واتخذة خليلاً في كبره ، قال الله تعالى: { وَوَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسُدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ } (٥١)^(٢). أي كان أهلاً لذلك.

وقال تعالى: { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اغْبُذُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (١٦) { إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (١٧) { وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } (١٨) { أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } (١٩) { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٢٠) { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } (٢١) { وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } (٢٢) { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } (٢٣) { فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (٢٤) { وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ } (٢٥) { فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (٢٦) { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } (٢٧)^(١).

المطلب الثاني: الاستهداء بملكوت السماوات والأرض:

ثم قال تعالى: { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } (٧٥) { فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ } (٧٦) { فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ } (٧٧) { فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ } (٧٨) { إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذِّي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } (٧٩) { وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } (٨٠)

(١) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ١٢٣.

(٢) سورة الأنبياء - الآية: "٥١".

(1) سورة العنكبوت - الآيات: "١٦-٢٧".

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَسْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَسْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ {٨١} الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ {٨٢} وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ {٨٣} (٢).

وفي (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) أي ملك ، وزيدت الواو التاء للمبالغة في الصفة. ومثله الرغيبوت والرهبوت والجبروت. وقرأ أبو السمال العدوي "ملكوت" بإسكان اللام. ولا يجوز عند سيبويه حذف الفتحة لخلفتها ولعلها لغة ، ونرى بمعنى أرينا؛ بمعنى المضي. فقيل: أراد به ما في السموات من عبادة الملائكة والعجائب وما في الأرض من عصيان بني آدم ؛ فكان يدعو على من يراه يعصي فيهلكه الله ، فأوحى الله إليه يا إبراهيم أمسك عن عبادي أما علمت أن من أسمائه الصبور. روى معناه على عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: كشف الله له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين (٣). وروي ابن جريج عن القاسم عن إبراهيم النخعي قال: فرجت له السموات السبع فنظر إليهن حتى انتهى إلى العرش ، وفرجت له الأرضون فنظر إليهن ، ورأي مكانه في الجنة ؛ فذلك قوله: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} {٢٧} (٤).

وقد أراد الله لإبراهيم أن يكون من الموقنين، فقال أريناه ذلك أي الملكوت وتتمرحل رحلة البحث عن التوحيد في تأمل سيدنا إبراهيم للكون من حوله.

فلما جنَّ عليه الليلُ. أي ستره بظلمته ، ومنه الجنة، والجنة، والجنَّة، والجنَّين، والمجنَّ، والجنَّ كله بمعنى الستر.

وقيل: لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس، فرأى الإبل والخيل والغنم فقال: لا بد لها من رب. ورأى المشتري أو الزهرة ثم القمر ثم الشمس، وكان هذا في آخر الشهر. قال محمد بن إسحاق: وكان ابن خمس عشرة سنة. وقيل: ابن سبع سنين ، وقيل: لما حاج نمroda كان ابن سبع عشرة سنة.

قوله تعالى: (قال هذا ربي) اختُلف في معناه على أقوال ؛ فقيل: كان هذا منه في مهلة النظر وحال الطفولية وقيل قيام الحجة ؛ وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان. استدل قائلو هذه المقالة بما روي على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: " فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي " فعيده حتى غاب عنه ، وكذلك الشمس والقمر ، فلما تم نظره قال: (إنني برئ مما تشركون)، واستدل بالأقول لأنه أظهر الآيات على الحدوث. وقال قوم: هذا لا يصح ؛ وقالوا: غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو الله موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه بريء. قالوا: وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وأتاه رُشده من قبل ، وأراه ملكوته ليكون من الموقنين ، ولا يجوز أن يُوصف بالخلو من المعرفة ، بل عرف الرب أول النظر، قال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ } {٣٥} (٥).

(٢) سورة الأنعام - الآيات: "٧٥-٨٣".

(٣) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ١٢٤.

(٤) سورة العنكبوت - الآية: "٢٧".

(٥) سورة إبراهيم - الآية: "٣٥".

وقال جل وعز: "بقلب سليم"^(٣). أي لم يُشرك قط. قال: والجواب عندي أنه قال: { هذا ربي } على قولكم ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ؛ ونظير هذا قوله تعالى: "أين شركائي" وهو جل وعلا واحد لا شريك له. والمعنى: أين شركائي على قولكم. وقيل: لما خرج إبراهيم من السرب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربه ، فظن أنه ضوءه قال " هذا ربي" أي بأنه يتراءى لي نوره، (فلما رأى القمر بازغاً) ونظر إلى ضوءه "قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين" فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي" وليس هذا شركاً ، إنما نسب ذلك الضوء إلى ربه، فلما رآه زائلاً دلّه العلم على أنه غير مستحق لذلك ؛ ففاه بقلبه وعلم أنه مربوب وليس بربّ. وقيل: إنما قال هذا ربي" لتقرير الحجة على قومه، فأظهر موافقتهم، فلما أفل النجم قرر الحجة وقال: ما تغير لا يجوز أن يكون رباً. وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها. وقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في هذا ما صحّ عن ابن عباس أنه قال في قول الله عز وجل: { اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (٣٥)^(١). قال: (كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدل عليه بقلبه ، فإذا عرفه ازداد نوراً على نور وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدل عليه بدلائله ، فعلم أن له رباً وخالفاً فلما عرفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال: "أحتاجوني في الله وقد هدان" وقيل هو على معنى الاستفهام والتوبيخ ، مُنكرًا لفعلهم. والمعنى: أهذا ربي ، ومثل هذا يكون ربا ! فحذف الهمزة. وفي التنزيل { وَمَا جَعَلْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ } (٣٤)^(٢). أي أفهم^(٣).

فلما رأى القمر بازغاً أي طالعاً. يقال: بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع والبرغ الشق ؛ كأنه يشق بنوره الظلمة ؛ ومنه بزغ البيطار الدابة إذا أسال دمها وفي لئن لم يهديني ربي: أي لئن لم يُثبتي على الهداية. وقد كان مهتدياً ، فيكون جري هذا في مهلة النظر ، أو سأل التثبيت لمكان الجواز العقلي ؛ كما قال الشعبي، (وما يَكُونُ لنا أن نُعود فيها إلا أن يشاء الله) وفي التنزيل: (اهدنا الصراط المستقيم) أي ثبتنا على الهداية، وقد تقدم.

وفي قوله: إني وجهت وجهي. أي قصدت بعبادتي وتوحيدي لله عز وجل وحده. وذكر الوجه لأنه أظهر ما يُعرف به صاحبه. (حنيفاً) مائلاً إلى الحق (وما أنا من المشركين)، وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة ، لا يصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله عز وجل لأنها مخلوقة مربوبه مصنوعة مدبرة مسخرة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم، والربّ تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوال لا إله إلا هو ولا رب سواه . فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكوكب لذلك قيل هو الزهرة ، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدره مربوب^(١).

(٣) سورة الصافات - الآية: "٨".

(١) سورة النور - الآية: "٣٥".

(٢) سورة الأنبياء - الآية: "٣٤".

(٣) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ١٢٧.

(١) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ٢٨.

وكانوا خوفوه بكثرة ألتهم- إلا أن يُحبيه ويقدره فيخاف ضرره حينئذ وهو معنى قوله: (إلا أن يشاء ربي شيئاً) أي إلا أن يشاء أن يلحقني شيء من المكروه بذنبي وعملي وفق مشيئة. أي لست أبالي هذه الآلة التي تعبدونها من دون الله فإنها لا تنفع شيئاً ولا تسمع ولا تعقل ، بل هي مربوبه مسخرة كالكواكب ونحوها أو مصنوعة منحوتة منجوره.

وفي وكيف أخاف ما أشركتم ففي "كيف" معنى الإنكار فأنكر ؛ أنكر عليهم تخويفهم إياه بالأصنام وهم لا يخافون الله عز وجل ؛ أي كيف أخاف مواتنا وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء، (ما لم ينزل به عليكم سلطاناً) أي حجة ، وقد تقدم، (فأي الفريقين أحق بالأمن) أي من عذاب الله: الموحّد أم المشرك ؛ فقال الله قاضياً بينهم: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أي بشرك ؛ قاله أبو بكر الصديق، وعلى، وسلمان وحذيفه رضي الله عنهم. وقال ابن عباس: هو من قول إبراهيم ، كما يسأل العالم ويجيب نفسه. وقيل: هو من قول إبراهيم أي أجيئوا بما هو حجة عليهم ، قاله ابن جريح وفي الصحيح عن ابن مسعود لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: " ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لأبنه : يا بني لا تُشرك بالله إن الشرك لظلمٌ عظيم" ، (وهم مهتدون) أي في الدنيا.

ويقول المفسرون في قوله تعالى: { وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ } (٨٣) (١).

إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة. وقال مجاهد هي قوله: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) وقيل: حجتهم عليهم أنهم لما قالوا له: أما تخاف أن تخيبك آلهتنا لسببك إياها ؛ قال لهم: أفلا تخافون أنتم منها إذ سويتم بين الصغير والكبير في العبادة والتعظيم ؛ فيغضب الكبير فيخيلكم. نرفع درجات من نشأء. أي بالعلم، والفهم، والإمامة والملك.

المطلب الثالث: إبراهيم يحاور أباه:

قال تعالى: { وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } { ٤١ } { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } { ٤٢ } { يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا } { ٤٣ } { يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا } { ٤٤ } { يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا } { ٤٥ } { قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا } { ٤٦ } { قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا } { ٤٧ } { وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا } { ٤٨ } (2).

فذكر تعالى ما كان بينه وبين أبيه من المحاوره والمجادلة ، وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة ، بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه ، فكيف تغنى عنه شيئاً، أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر؟ ثم قال له منبهياً على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع،

(٢) سورة الأنعام - الآية: "٨٣".

(2) سورة مريم - الآيات: " ٤١-٤٨".

وإن كان أصغر سنّاً من أبيه: (يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً) أي مستقيماً واضحاً سهلاً حنيفاً يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخرأك^(٣).

فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه ، لم يقبلها منه ولا أخذها عنه ، بل تهدّده وتوعده قيل بالمقال، وقيل بالفعال. وأهجرني ملياً. أي واقطعني وأطل هجراني.

فعندها قال له إبراهيم: سلام عليك أي لا يصلك منى مكروه، ولا ينالك منى أذى ، بل أنت سالم من ناحيتي، وزاده خيراً فقال: (سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً).

وقد استغفر له إبراهيم عليه السلام كما وعده في أذعيتيه ، فلما تبين له أنه عدوّ الله تبرأ منه، كما قال تعالى: (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم).

وقال البخاري: حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثني أخي عبد الحميد ، عن ابن أبي ذئب - عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يلقي إبراهيم أباه أزر قنطرة وعلى وجه أزر قنطرة وغبرة ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فالיום لا أعصيك ، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون فأبي خزني أخزي من أبي الأبعد ؟ فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجلك؟ فينظر فإذا هو بذيح متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار) (١)

وقال في التفسير: وقال إبراهيم بن طهان عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة.

وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن حفص بن عبد الله ، عن أبيه، عن إبراهيم بن طهان عن أبيه ، وقد رواه البزار عن حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ، وفي سياقه غرابة ورواه أيضاً من حديث قتادة عن عقبه بن عبد الغافر ، عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه.

وقال تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أتتخذ أصناماً آلهة؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين). وهذا يدل على أن اسم أبي إبراهيم أزر ، وجمهور أهل النسب ، منهم ابن عباس ، على أن اسم أبيه تارح. وأهل الكتاب يقولون: تارح بالخاء المعجمة ، فقيل: إنه لقب بصنم كان يعبد اسمه أزر.

وقال ابن جرير: والصواب أن اسمه أزر، ولعل له اسمان علمان، أو أحدهما لقب والآخر علم^(١). وهذا الذي قاله محتمل والله أعلم.

وجاء في تفسير الزمخشري أن (أزر) اسم أبي إبراهيم عليه السلام وفي كتب التواريخ أن اسمه بالسريانية تارح أتعبد آزرا على الإنكار ، ثم قال تتخذ أصناماً آلهة، تثبيتهاً لذلك وتقريراً وهو داخل في حكم الإنكار ؛

(٣) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ٣٠.

(٢) تاريخ ابن عساکر (٢/١٣٦/١٣٧) تهذيب).

لأنه كالبيان له، (فلما جن عليه الليل) والمعنى: ومثال ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم وتبصره ملكوت السموات والأرض: يعنى الربوبية والإلهية ونوفقه لمعرفة ونرشده بما شرحنا صدره، وسددنا نظره، وهديناه لطريق الاستدلال – وليكون من الموقنين – فعلنا ذلك ونرى حكاية حال ماضيه. وكان أبوه أزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثاً أحدثها، وصناعاً صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها، (هذا ربي) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه؛ لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجي من الشغب، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة، (لا أحب الأفلين) لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المنتقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر فإن ذلك من صفات الأجرام، (فلما رأي القمر بازغاً) بازغاً مبتدئاً في الطلوع، (لئن لم يهديني ربي) تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً، وهو نظير الكواكب في الأفول فهو ضال وأن الهداية على الحق بتوفيق الله ولطفه فلما رأى الشمس قال، (هذا أكبر) من باب استعمال النصفة أيضاً مع خصومة، (إني برئ مما تشركون) من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها، (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) أي للذي دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدئها ومبتدعها، وقيل هذا كان نظره واستدلاله في نفسه فحكاها الله، والأول أظهر لقوله – لئن لم يهديني ربي – وقوله- يا قوم إني برئ مما تشركون- فإن قلت: لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قلت: الاحتجاج بالأفول أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب. ويتواصل الحوار والمحاجة في قوله (وحاجة قومه قال أتحتاجوني في الله) وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه منكرين لذلك، (وقد هدان) يعني على التوحيد، (ولا أخاف ما تشركون به) وقد خوفه أن معبوداتهم تصيبه بسوء، (إلا أن يشاء ربي شيئاً) إلا وقت مشيئة ربي شيئاً يخاف فحذف الوقت: يعني لا أخاف معبوداتكم في وقت قط؛ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة، إلا إذا شاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ذنباً استوجب به إنزال المكروه، مثل أن يرجمني بكوكب، أو بشقة من الشمس أو القمر، أو يجعلها قادرة على مضرتي، (وسع ربي كل شيء علماً) أي ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بي من جهتها، (أفلا تتذكرون) فتميزوا بين الصحيح والفساد، والقادر والعاجز، (وكيف أخاف) لتخويفكم شيئاً مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه، (وأنتم لا تخافون) ما يتعلق به كل مخوف وهو إشراككم بالله ما لم ينزل بإشراكه (سلطاناً) أي حجة؛ لأن الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة كأنه قال: ومالكم تنكرون على الأمن في موضع الأمن ولا تتكرون على أنفسكم إلا من في موضع الخوف؟ ولم يقل فمن أحق بالأمن أنا أم أنتم؟ احترازاً من تزكيتة نفسه؛ فعدل عنه إلى قوله (فأيّ الفريقين) فريقى المشركين والموحدين. ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبي تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس، (وتلك) إشارة إلى جميع ما احتاج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله – فلما جن عليه الليل إلى قوله – وهم مهتدون – ومعنى (آتيناه) أرشدناه إليها ووقفناه لها^(١)، (نرفع درجات من نشاء) يعنى في العلم والحكمة، عطف على نوحاً أي هدينا داود، (ومن آبائهم) في موضع النصب عطفاً على كلا بمعنى وفضلنا بعض آبائهم، (ولو أشركوا) مع فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات لكانوا كغيرهم في حيوط أعمالهم، كما قال تعالى وتقدس- لئن أشركت ليحبطن عملك – (آتيناهم الكتاب) يريد الجنس، (فإن يكفر بها) بالكتاب والحكمة والنبوة أو

(١) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد)، تفسير الكشاف – دار الفكر للطباعة والنشر – ص ٧٨.

بالنبوة (هؤلاء) يعني أهل مكة (قوماً) هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) وبدليل وصل قوله: فإن يكفر بها هؤلاء بما قبله، وقيل هم أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم وكل من آمن به، وقيل كل مؤمن من بني آدم، وقيل الملائكة وأدعى الأنصار أنها لهم، وعن مجاهد: هم الفرس. ومعنى توكيلهم بها أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها، كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهد ويحافظ عليه، والباء في بها صلة كافرين، وفي بكافرين تأكيد النفي فبهدهم اقتده؛ فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد إلا بهم، وهذا معنى تقديم المفعول، والمراد بهدهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فإنها مختلفة، وهي هدى ما لم تنتسخ فإذا نسخت لم تبق هدى بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً^(٢).

المطلب الرابع: حوار مع قومه:

وقال تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ } {٥١} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } {٥٢} قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ } {٥٣} قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } {٥٤} قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ } {٥٥} قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } {٥٦} وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ } {٥٧} فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ } {٥٨} قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ } {٥٩} قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ } {٦٠} قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ } {٦١} قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ } {٦٢} قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفِقُونَ } {٦٣} فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ } {٦٤} ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطَفِقُونَ } {٦٥} قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ } {٦٦} أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } {٦٧} قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ } {٦٨} قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ } {٦٩} وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } {٧٠} }^(٣).

وقال تعالى: { وَآتَيْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ } {٦٩} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ } {٧٠} قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ } {٧١} قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ } {٧٢} أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ } {٧٣} قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } {٧٤} قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ } {٧٥} أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ } {٧٦} فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ } {٧٧} الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ } {٧٨} وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ } {٧٩} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } {٨٠} وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } {٨١} وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } {٨٢} رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ } {٨٣} }^(٤).

وقال تعالى: { وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ } {٨٣} إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } {٨٤} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ } {٨٥} أَنفُكَآ إِلَهَةَ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ } {٨٦} فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } {٨٧} فَتَنظَرْ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ } {٨٨} فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ } {٨٩} فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ } {٩٠} فَرَاعَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ } {٩١} مَا لَكُمْ لَا تَنْطَفِقُونَ } {٩٢} فَرَاعَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ } {٩٣}

(٢) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد)، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ٣٢.

(٣) سورة الأنبياء - الآيات: "٥١-٧٠".

(٤) سورة الشعراء - الآيات: "٦٩-٨٣".

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ {٩٤} قَالَ أَنْعَبُدُونَ مَا تَنْجُتُونَ {٩٥} وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ {٩٦} قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ {٩٧} فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ {٩٨} (٥).

ففي هذه الآيات يُخبر الله تعالى عن إبراهيم خليله عليه السلام ، أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها وعاندهم وصغرها وتنقصها ، فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم معتكفون عندها وخاضعون لها ، قالوا: وجدنا آباءنا لها عابدين ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد، فرد عليهم قائلاً: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ، كما قال تعالى: (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون * أنفكاً آلهة دون الله تريدون * فما ظنكم برب العالمين). قال قتاده: ما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقينموه وقد عبدتم غيره؟^(٥).

وقال لهم: هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. وقد سلموا له أنها لا تسمع داعياً ولا ينفع ولا تضر شيئاً ؛ وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم، ومن هو مثلهم في الضلال من الآباء الجهال. ولهذا قال لهم: (أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي إلا رب العالمين).

وهذا برهان قاطع على بطلان إلهية ما ادعوه من الأصنام ؛ لأنه تبرأ منها وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر لأثر فيه.

ثم أنهم ردوا عليهم فقالوا هذا الكلام الذي تقوله لنا وتنتقص به آلهتنا وتطعن بسببه في آباءنا أتقوله. محقاً جاداً فيه أم لاعباً ؟ (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) يعني بل أقول لكم ذلك جاداً محقاً ، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ربكم ورب كل شيء ، فاطر السموات والأرض ، الخالق لهما على غير مثال سبق ، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له وأنا على ذلكم من الشاهدين.

وقد أقسم ليكيدين هذه الأصنام التي يعبدونها، بعد أن يولوا مدبرين إلى عبيدهم.

قيل: إنه قال هذا خفيه في نفسه. وقال ابن مسعود: سمعه بعضهم. وكان لهم عيد يذهبون إليه في كل عام. مرة إلى ظاهر البلد ، فدعاه أبوه ليحضره فقال إني سقيم. عرض لهم في الكلام حتى توصل إلى مقصودة من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الإهانة.

فلما خرجوا إلى عبيدهم ، واستقر هو في بلدهم، (راغ إلى آلهتهم) أي ذهب إليها مسرعاً مستخفياً ، فوجدها في بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعاً من الأطعمة قرباناً إليها، فقال لها على سبيل التهكم والازدراء ألا تأكلون * مالكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضرباً باليمين ؛ لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر ، فكسرها بقدم في يده، كما قال تعالى: (فجعلهم جذاذاً) أي حطاماً ، كسرها كلها، (إلا كبيراً لهم لعلمهم إليه يرجعون) قيل إنه وضع القدم في يد الكبير ، إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار!^(٥).

(٥) سورة الصافات - الآيات: "٨٣-٩٨".

(٦) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ١٢٨.

(٧) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ١٢٩.

فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم، (قالوا: من فعل هذا بألهتنا إنه لمن الظالمين).

وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون ، وهو ما حلّ بألهتهم التي كانوا يعبدونها، فلو كانت آلهة لدفعت عن نفسها من أرادها بسوء، لكنهم قالوا من جهلهم وقله عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: (من فعل هذا بألهتنا إنه لمن الظالمين). فقالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم. أي يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها ، فهو المقيم عليها، والكاسر لها وعلى قول ابن مسعود ، أي يذكرهم بقوله: (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين).

فقالوا فأتوا به في الملاء الأكبر على رؤوس الأشهاد ، لعلمهم يشهدون مقالته ويسمعون كلامه ، ويعاينون ما يحل به من الاقتصاص منه.

وكان هذا أكبر مقاصد الخليل عليه السلام أن يجتمع الناس كلهم ، فيقيم على جميع عبّاد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون: موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى.

فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا قالوا أنت فعلت هذا بألهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا قيل معناه: هو الحامل علي تكسيرهم ، وإنما عرض لهم في القول: فاسألوهم إن كانوا ينطقون^(٢).

وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنها جماد كسائر الجمادات.

فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا إنكم أنتم الظالمون. أي في تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها.

ثم نكسوا على رؤوسهم، قال السدي: أي ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلي هذا يكون قوله: إنكم أنتم الظالمون أي في عبادتها.

وقال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء. أي فأطرقوا ثم قالوا: لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. أي لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق فكيف تأمرنا بسؤالها!.

فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون.

كما قال: فأقبلوا إليه يزفون قال مجاهد: يسرعون قال: أتعبدون ما تتحتون أي كيف تعبدون أصناماً أنتم تتحتونها من الخشب والحجارة، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون والله خلقكم وما تعملون.

فعدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم ، لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم ، فكادهم الرب جل جلاله ، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى: (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني بردا وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرين).

(٢) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ١٣٠.

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن. فمكثوا مدة يجمعون، له حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم، ثم عمدوا إلى حوبة^(١). عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار، فاضطربت، وتأججت والتهبت، وعلاها شرر لم ير مثله قط.

ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق (١) صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له "هيزن"، وكان أول من صنع المنجنيق، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه، وهو يقول: لا إله إلا أنت سبحانك [رب العالمين (٢)] لك الحمد ولك الملك، لا شريك لك.

فلما وضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النار، قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار. وقالها محمد حين قيل له: "إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء"^(٤).

وقال أبو يعلى: حدثنا أبو هشام الرفاعي. حدثنا إسحق بن سليمان. عن أبي جعفر الرازي، عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: (لما ألقى إبراهيم في النار قال: اللهم إنك في السماء واحد وأنا في الأرض واحد أعبدك). وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا!

ويُروى عن ابن عباس وسعيد بن جبيرة أنه قال: جعل ملك المطر يقول: متى أومر فأرسل المطر؟ فكان أمر الله أسرع. قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) قال على ابن أبي طالب: أي لا تضريه.

وقال ابن عباس وأبو العالية: لولا أن الله قال: (وسلاماً على إبراهيم) لأذى إبراهيم بردها.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار، ولم تحرق منه سوي وثاقه.

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق عن وجهه لم يصبه منها شيء غيره.

وقال السدي: كان معه أيضاً ملك الظل، وصار إبراهيم عليه السلام في ميل الحوبة حول نار وهو في روضة خضراء؛ والناس ينظرون إليه لا يقدر على الوصول، ولا هو يخرج إليهم.

فعن أبي هريرة أنه قال: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم، إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال: نعم الرب ربك يا إبراهيم!.

(١) الحوبة: الحفرة.

(٢) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ١٣١.

وروي ابن عساكر عن عكرمة^(١)، أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته: يا بني أني أريد أن أجيء إليك، فادع الله أن ينجيني من حر النار حولك، فقال: نعم. فأقبلت إليه لا يمسه شيء من حر النار، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ثم عادت.

فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا، وأرادوا أن ينتفخوا فاتضعوا. وأرادوا أن يغلبوا فقلبوا، قال الله تعالى: (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) وفي الآية الأخرى (الأسفلين)، ففازوا بالخسارة والسفال هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم برداً ولا سلاماً. ولا يلقون فيها تحية ولا سلاماً. بل هي كما قال تعالى (إنها ساءت مستقراً ومقاماً).

قال البخاري: حدثنا عبيد الله بن موسى، أو ابن سلام عنه أنبأنا ابن جريج عن عبد الحميد بن جبيرة. عن سعيد بن المسيب. عن أم شريك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ^(٢). وقال: " كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام". ورواه مسلم من حديث ابن جريج، وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان ابن عيينة. كلاهما عن عبد الحميد بن جبيرة بن شيبه به.

وقال أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ابن جريج أخبرني عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبي أمية، أن نافعاً مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم). قال: (فكانت عائشة تقتلهن).

وقال أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن نافع، أن امرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب فقالت: ما هذا الرمح؟ فقالت: نقتل به الأوزاغ، ثم حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أن إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب كلها تطفئ عنه إلا الوزغ، فإنه جعل ينفخها عليه)^(٣).

(1) الرواية ذكرها ابن عساكر ابن عساكر مطولة في تاريخه (١٤٧/٢/تهذيب) ونصها: حكى عكرمة بلفظ "إن نار الدنيا كلها لم تنتفع بها يوماً أحد من أهلها قال فلما أخرج الله إبراهيم من النار زاد في حسنه وجماله سبعين ضعفاً وقال إنه لما ألقى في النار قالت أمه لقد كان ابني يقول إن له رياً يمنعه وأراه يلقي في النار مما ينفعه وإني مطلعة على هذه النار أنظر إلى أبنائي ما فعل فعملت لها سلماً ثم أطلعت على السلم حتى إذا شرفت أبصرت إبراهيم في وسط النار فنادته أمه يا إبراهيم فلما رآها قال لها يا أمه ألا ترين ما صنع الله بي قالت يا بني لولا أني أخاف النار لمشيت إليك فقال يا أمه أنزلي وتعالى فقالت يا بني ادع إلهك أن يجعل لي طريقاً فدعا ربه فجعل لها طريقاً ثم نزلت فقالت إنني أخاف فقال لا تخافي هل تجدين من حر النار شيئاً قالت لا فسارت إله حتى إذا دنت منه ضمته إلى صدرها وجعلت ثقيله فقال لها يا أمه أرجعي عما أنت عليه فالتفت لترجع فإذا بالنار قد التهب فقالت أسألك بحق إلهك إلا ما دعوت ربك أن يبعد النار عن طريقي فدعا ربه فمرت حتى إذا كانت على رأس الحائط وأرادت أن تنزل نادى يا إبراهيم ابني عليك السلام ثم ذهبت "أ.ه".

(٢) هو من دواب الأرض التي تسكن في الشقوق البيوت وكل شق ويسمى أحياناً (الضب).

(٣) الحديث رواه البخاري في صحيحه (٣٣٥٩/٨/٦٠/فتح) ورواه مسلم في صحيحه.

المبحث السادس

الحرب الكلامية

المطلب الأول: كلام الله المباشر للكافرين:

كما في قوله تعالى: { فَفَدَّ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } (٥) (١).

قال تعالى: { قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } (١٠٤) { وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } (١٠٥) (٢). في قوله تعالى: { وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ } (١١١) (٣).

أرسل الله سبحانه وتعالى الآيات القرآنية التي يفيد معناها عظمة الله ووحدانيته ووجوب الإيمان به إلا أن كفار قريش قابلوها بالإعراض، وقال تعالى: { وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } (١٦٤) (٤). ويأتي الكلام كمرحلة أولى في الحالات النزاعية ثم تليه مرحلة الحرب القتالية، وتأتي المساجلات الكلامية دائماً من قبل الرافضيين لقضية معينة، وهم يسوقون الحجج الواهية، ويجادلون ويمارون ليباعدوا عن الحقيقة، وقد لجأ كفار قريش إلى هذا الأسلوب عندما دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ترك عبادة الله وتوحيده، وهي دعوة لتصحيح عقيدتهم الفاسدة بعبادة غير الله، وقد تضمنت سورة الأنعام العديد من هذه الآيات تنوعت فيها حججهم.

جاء في المفسرون: (وما تأتيهم من آية) إنها الآية من القرآن، والقول الثاني أنها المعجزة مثل انشقاق القمر... الخ. والفراد بالحق: القرآن والأنبياء الأخبار والمعنى سيعلمون عاقبة استهزائهم (٥).

ففي الآيات إشارة إلى أن كل معينات الإيمان وتصحيح عقيدة الإيمان قدمت لكفار قريش، فتمسكوا بالإعراض في كل مرة تأتيهم آية يديروا ظهورهم معرضين، باستهزاء واضح، فانتهي الحوار بأن توعدهم المولى بأنهم سيعلمون عاقبة هذا الاستهزاء والإعراض.

(١) سورة الأنعام - الآية: "٥".

(٢) سورة الأنعام - الآية: "١٠٤".

(٣) سورة الأنعام - الآية: "١١١".

(٤) سورة النساء - الآية: "١٦٤".

(٥) المسير في علوم التفسير - ج ٣ ص ١٥٠.

المطلب الثاني: الكلام مع أهل الكتاب:

وينتقل الكلام إلى أهل الكتاب من بعد المشركين الكافرين فأهل الكتاب كان لهم إعراضهم عن قرآن محمد صلى الله عليه وسلم وقد واجههم الله بأنهم يعرفون مجيء الإسلام والقرآن تماماً كما يعرفون أبناءهم الذين هم من أصلابهم. وذلك في قوله تعالى: { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } (٢٠) (١).

يقول المفسرون في الكتاب قولان: إحداهما أنه التوراة والإنجيل، وهذا قول الجمهور ، والثاني القرآن الكريم ، والمعنى يعرفون الكتاب للدال على صدقه قولان أنهم مشركو مكة ، والثاني كفار أهل الكتاب (٢). والمعنى أن كفار أهل الكتاب أعرضوا عن الإيمان بمحمد وما جاء به رغم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وستكون عاقبتهم خسران نتيجة ذلك الجحود، وبأنهم سيدخلون النار وحينها سيعدّون بأنهم ما كانوا مشركين ولن ينفّهم هذا القسم.

ويتواصل الخطاب مع الذين حاربوا الله بأن كفروا به وأنكروا عبوديته فيتبين حقيقة حالهم كما في قوله تعالى: { وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } (٣٩) (٨).

وفي التفسير إن الذين كذبوا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم منهم صم عن القرآن لا يسمعون ، وبكم عنه لا ينطقون به ، في الظلمات أي في الشرك والضلالة. ومن يشأ الله يضلّه فيموت على الكفر، ومن يشأ يجعله على الإسلام. فبينت الآية حال أهل الكفر حين تلقوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم منهم في حالة تعطلت فيها كل حواس إدراكهم، فلم يعوا حقيقة الإيمان بالله فينعموا به؛ بل هم في ظلمات الشرك. والهداية من عند الله جلّ وعلا.

وتتواصل الحرب الكلامية مع أهل الكفر فيأتي السؤال عن إلى من يلجأون إذا أحبط بهم؟ وأصبحوا في مأزق؟ كما في قوله تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } (٤٠) (١). والكلام هنا بمعنى أخبروني وهو سؤال من يريد خبراً أما العذاب ، فهو الموت كما قال ابن عباس، والساعة هي الوقت الذي يصعق فيه العباد.

ويأتي الجواب في الآية اللاحقة (بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون).

قال الزجاج في تفسير هذه الآية: أعلمهم الله أنهم لا يدعون في الشدائد إلا إياه، وفي ذلك أعظم الحجج عليهم؛ لأنهم عبدوا الأصنام من دون الله.

والمعنى: أن الله هو الذي يكشف الضرّ الذي من أجله دعوتهم ، وهذا على اتساع الكلام يكون بمعنى تتركوا أو تنسون.

(٦) سورة الأنعام - الآية: "٢٠".

(٧) المسير في علوم التفسير - ج ٣ - ص ١٥١

(٨) سورة الأنعام - الآية: "٣٩".

(١) سورة الأنعام - الآية: "40".

ثم يأتي الكلام عن علاقة الكفار والمشركين من أهل مكة والمؤمنين من مواليهم في مجتمع مكة الطبقية، وذلك في قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ } (٥٣) (٢).

والمعنى ابتلينا كُبراء مكة بفقرائهم والضعفاء منهم، قال ابن السائب في التفسير: ابتلى الله الرؤساء بالموالي، فإذا نظر الشريف من أهل مكة إلى الوضيع من الموالي وقد آمن قبله، أنف أن يسلم ويقول سبقني هذا؟ وكله من قبل التعالي والكبر الذي حال دون أن يؤمنوا، فأصبحوا من الحاسدين.

المطلب الثالث: الحرب الكلامية على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم:

انتقل الحوار، بعد أن كان السياق مباشر مع أهل الكفر من مشركي قريش وأهل الكتاب، ليكون بواسطة النبي صلى الله عليه وسلم بأن يوجه الله تعالى كلامه إلى النبي بأن يقول له قل كما في قوله: { وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَافِرٌ رَّحِيمٌ } (٥٤) (٣).

اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية، قال الحسن وعكرمة إنها نزلت في الذين نهى عن طردهم من مجلسه صلى الله عليه وسلم، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام، وقال الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام، وقد أمر بالسلام عليهم تشريفاً لهم، وقال الزجاج أنه أمر بإبلاغ السلام إليهم من الله تعالى: ومعنى السلام: دعاء للإنسان بأن يسلم من الآفات والسوء، وهو الشرك والمعاصي. وفي هذا أن الله يغفر عن عباده من في (من آية) للاستغراق وفي (من آيات ربهم) للتبويض: يعنى وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التي يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار إلا كانوا عنه معرضين، تاركين للنظر، لا يلتفتون إليه، ولا يرفعون به رأساً لقلّة خوفهم وتدبرهم للعواقب، (فقد كذبوا) إن كانوا معرضين عن الآيات فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها، وهو الحق (لما جاءهم) يعنى القرآن الذي تحدوا به على تبالغهم في الفصاحة فعجزوا عنه، (فسوف يأتيهم أنباء) الشيء الذي (كانوا به يستهزئون) وهو القرآن: أي أخباره وأحاله بمعنى سيعلمون بأي شئ استهزءوا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا ويوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته. مكن له في الأرض جعل له مكاناً له فيها، ونحوه أرض له، وأما مكنته في الأرض فأتبته فيها، ومنه قوله: (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) ولتقارب المعنيين جمع بينهما في قوله: (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرنٍ مكناهم في الأرض ما لم تُمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * ولو نزلنا عليكم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لَقُضِيَ الأمر ثم لا يُنظرون) (٤).

(٢) سورة الأنعام - الآية: "٥٣".

(٣) سورة الأنعام - الآية: "٥٥".

(٤) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ٥٠.

(مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم) والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاد وثمود وغيرهم من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا والسماء المظلة؛ لأنّ الماء ينزل منها إلى السحاب أو المطر والمدرار الغزير، فإن قلت: أي يهلك قرناً ويخرب بلاده منهم فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده، كقوله تعالى: (ولا يخاف عقباها) - (كتاباً) (في قرطاس) مكتوباً في ورق (فلمسوه بأيديهم) ولم يقتصر بهم على الرؤية لنلا يقولوا سكرت أبصارنا - ولا تبقى لهم علة لقالوا (إن هذا إلا سحر مبين) تعنتا وعناداً للحق بعد ظهوره، (لقضي الأمر) لقضي أمر هلاكهم (ثم لا ينظرون) بعد نزوله طرف عين، إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته، وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن ثم لا يؤمنون، كما قال: (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى) - لم يكن بد من إهلاكهم كما أهلك أصحاب المائدة، وإما لأنّه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة فيجب إهلاكهم، وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون، ومعنى ثم بعد ما بين الأمرين.

قضاء الأمر وعدم الانتظار جعل عدم الانتظار أشد من قضاء الأمر؛ لأنّ مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة، (ولو جعلناه ملكاً) ولو جعلنا الرسول ملكاً كما اقترحوا؛ لأنهم كانوا يقولون لولا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ملك، وتارة يقولون - ما هو إلا بشر مثلكم - ولو شاء ربنا لأنزل ملائكته - (لجعلناه رجلاً) لأرسلناه في صورة رجل، كما كان ينزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعم الأحوال في صورة (دحية الكلبي)؛ لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم (وللبسنا عليهم) ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حينئذ فإنهم يقولون إذ رأوا الملك في صورة إنسان: هذا إنسان وليس بملك، فإن قال لهم: الدليل أني ملك أني جنت بالقرآن المعجز وهو ناطق بأني ملك لا بشر كذبوه، كما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن، لبس الله عليهم فهو، ويجوز أن يراد وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة^(١).

ويتواصل كلامه تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم مبيناً له أنه وكما فصلنا لك في هذه السورة من خلال آياتها دللنا وأعلامنا، ووصفنا للمشركين وأساليبهم الجدلية كذلك نبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل وذلك في قوله (وكذلك نفضل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين).

ويقول الزمخشري مفسراً للآية (كذلك فتنا) ومثل ذلك الفتن العظيم فتنا بعض الناس ببعض: أي ابتليناهم بهم، وذلك أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين (أهؤلاء) الذين (منّ الله عليهم من بيننا) أي أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء إنكاراً لأنّ يكون أمثالهم على الحق وممنوناً عليهم من بينهم بالخير ونحوه -عالي الذكر عليه من بيننا - لو كان خيراً ما سبقونا إليه - ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك: خذلناهم فافتتنوا حتى كان افتتنانهم سبباً لهذا القول؛ لأنّه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مفتون، (أليس الله بأعلم بالشاكرين) أي الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان،

(١) القرطبي - جامع أحكام القرآن - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م - ص ٥١.

وبمن يصمّ على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق، (فقل سلام عليكم) إما أن يكون أمر بتبليغ سلام الله إليهم ، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطبيباً لقلوبهم ، وكذلك قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) من جملة ما يقول لهم؛ ليسرّهم ويبرّهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم.

(بجهالة) في موضع الحال أي عمله وهو جاهل ، وفيه معنيان: أحدهما أنه فاعل فعل الجهلة؛ لأنّ من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة، وهو عالم بذلك أو ظانّ فهو من أهل السفة والجهل لا من أهل الحكمة والتدبير^(٢).

والثاني أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة ، ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شئ حتى يعلم حالة وكيفيته. وقيل إنها نزلت في عمر رضي الله عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة. وقريء، (ولتستبين) بالتاء والياء مع رفع السبيل؛ لأنها تذكر وتوثق ، وبالتالي على خطاب الرسول مع نصب السبيل ، يقال استبان الأمر وتبين واستبينته وتبينته ، والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البيّن لفصل آيات القرآن، ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من هو مطبوع على قلبه لا يرجي إسلامه ، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة ، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده ، ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل.

ويقول الزمخشري في تفسيره (تهيت) صرفت وزجرت بما ركب في من أدله العقل، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون، (من دون الله) وفيه استجهال لهم ووصف بالافتحاح فيما كانوا فيه على غير بصيرة، (قل لا اتبع أهوائكم) أي لا أجري في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل ، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ، وتنبه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل، (قد ضللت إذا) أي إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من الهدى في شيء: يعني أنكم كذلك ولما نفي أن يكون الهوى متبعاً، نبّه على ما يجب اتباعه بقوله (قل إني على بينة من ربي) ومعنى قوله- إني على بينة من ربي وكذبتم به - أني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه على حجة واضحة وشاهد صدق، (وكذبتم به) أنتم حيث أشركتم به غيره ، يقال أنا على بينة من هذا الأمر، وأنا على يقين منه إذا كان ثابتاً عندك بدليل، ثم عقبه بما دلّ على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك، وأنهم أحقاء بأن يقاضوا بالعذاب المستأصل فقال (ما عندي ما تستعجلون به) يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم - فأمطر علينا حجارة من السماء - (إن الحكم إلا لله) في تأخير عذابكم (يقضي الحق) أي القضاء الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل في أقسامه (وهو خير الفاصلين) أي القاضين ، وقريء يقص الحق: أي يتبع الحق الحكمة فيما يحكم به ويقدره من قص أثره (لو أن عندي)، أي في قدرتي وإمكاني (ما تستعجلون به) من العذاب (لقضي الأمر بيني وبينكم) لأهلككم عاجلاً غضباً لربي وامتعاضاً من تكذيبكم به، ولتخلص منكم سريعاً (والله أعلم بالظالمين) وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم ، وقيل- على بينة من ربي - على حجة من جهة ربي وهي القرآن ، وكذبتم به: أي بالبينة ، وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن^(١).

(٢) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ٢٣.

(١) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ٢٤.

تنوّه الآيات في الحرب الكلامية إلى إبراز مكانة الله جلّ قدره كما في قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره). جاء في تفسير الكشاف للآية (وما قدروا الله حق قدره) وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عبادة واللفظ بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم وذلك من أعظم رحمته وأجل نعمته - وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين - أو ما عرفوه حتى معرفته في سخطه على الكافرين وشدة بطشه بهم ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوة والقائلون هم اليهود بدليل قراءة من قرأ تجعلونه بالتاء وكذلك تبدها وتخفون ، وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فألزموا ما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام ، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم ، وإن نعى عليهم سوء جهلهم لكتابتهم وتحريفهم، وإبداء بعض وإخفاء بعض فليل (جاء به موسى) وهو نور وهدى للناس حتى غيره ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة؛ ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء. وروى "أن مالك ابن الصيف من أخبار اليهود ورؤسائهم، قال له رسول الله صلي الله عليه وسلم: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها إن الله يبغض الحبر السمين؟ فأنت الحبر السمين، قد سميت من مالك الذي يطعمك اليهود فضحك القوم فغضب، ثم التفت إلى عمر فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له قومه ويك ما هذا الذي بلغنا عنك، قال إنه أغضبني فنزعه، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف، وقيل القائلون قريش وقد ألزموا إنزال التوراة؛ لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة، وكانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب لكننا أهدى منهم. (وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) الخطاب لليهود: أي علمتم على لسان محمد صلي الله عليه وسلم مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم وأنتم حملة التوراة ، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم - إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون - وقيل الخطاب لمن آمن من قريش كقوله تعالى- لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم. (قل الله) أي أنزله الله ، فإنهم لا يقدر أن يناكروك، (ثم ذرهم في خوضهم) في باطلهم ويجوز أن يكون في خوضهم حالاً من يلعبون وأن يكون صلة لهم أو لذرهم. (مبارك) كثير المنافع والفوائد، (ولتنذر) وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار. وسميت مكة (أم القرى) لأنها مكان أول بيت وضع للناس؛ ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم؛ ولأنها أعظم القرى شأنًا ، ولبعض المجاورين.

وقوله (والذين يؤمنون بالأخرة) يصدقون بالعاقبة ويخافونها (يؤمنون) بهذا الكتاب وذلك أن أصل الدين خوف العاقبة ، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخص الصلاة لأنها عماد الدين ، ومن حافظ عليها كانت لطفاً في المحافظة على أخواتها. وقوله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) فزعم أن الله بعثه نبياً (أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) وهو مسيلمة الحنفي الكذاب ، أو كذاب صنعاء الأسود العنسي^(١).

وجاء في تفسير الزمخشري (وليقولوا) جوابه محذوف تقديره وليقولوا درست نصرها. ومعنى (درست) قرأت وتعلمت ، وقرئ درست: أي درست العلماء ، ودرست بمعنى قدمت هذه الآيات وعفت كما قالوا- أساطير الأولين- ودرست بضم الراء مبالغة في درست: أي اشتد دروسها ،

(١) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ٤٢.

وفسروها بدراسة اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجاز الإضمار؛ لأنّ الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم ، ويجوز أن يكون الفعل للآيات وهو لأهلها: أي دارس أهل الآيات وحملتها محمداً وهم أهل الكتاب قلت: الفرق بينهما أن الأولى مجاز والثانية حقيقة^(٣).

أما قوله (ولا تسبوا) إلى (الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله) وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى – إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم – لتنتهين عن سب آلهتنا، أو لتهجون إلهك، وقيل كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله تعالى. فإن قلت: سب الآلهة حق وطاعة فكيف صحّ النهي عنه وإنما يصح النهي عن المعاصي؟ قلت: رب طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة، فيجب النهي عنها لأنها معصية لا لأنها طاعة كالنهي عن المنكر هو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية ووجب النهي عن ذلك النهي، كما يجب النهي عن المنكر^(٤).

قوله (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) كما قالوا: لولا أنزل علينا الملائكة (وكلمهم الموتى) كما قالوا: فأتوا بآبائنا (وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً) كما قالوا – أو تأتي بالله والملائكة قبلاً – قبلاً كفلاء بصحة ما بشرنا به وأذرننا أو جماعات وقيل قبلاً مقابلة ، وقرئ قبلاً: أي عياناً (إلا أن يشاء الله) مشيئة إكراه واضطرار (ولكن أكثرهم يجهلون) فيقسمون بالله جهد إيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات ، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطروهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً) وكما خيلنا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم لم نمنعهم من العداوة لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر، (شياطين) وجعلوا الله شركاء الجنّ – (يُوحى بعضهم إلى بعض يوسف شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس ، وكذلك بعض الجنّ على بعض الإنس على بعض. وعن مالك بن دينار: إن شيطان الإنس أشد على من شيطان الجنّ ، لآتي إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجنّ عنى وشيطان الإنس يجيني فيجرني إلى المعاصي عياناً، (زخرف القول) ما يزيه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويموهه، (غروراً) خدعاً وأخذاً على غرة، (ولو شاء ربك ما فعلوه) ما فعلوا ذلك: أي ما عادوك أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأنهم، (ولتصغي) وليكون ذلك، جعلنا لكل نبي عدواً ، على أن اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما ذكر ، أي ولتميل على ما ذكر من عداوة الأنبياء، ووسوسة الشياطين، (أفئدة) الكفار، (وليرضوه) لأنفسهم (وليقترفوا ما هم مقترفون) من الآثام، (أفغير الله أبتغى حكماً) على إرادة القول أي قل يا محمد أفغير الله أطلب حاكماً بيني وبينكم، ويفصل المحق منا من المبطل (وهو الذي أنزل عليكم الكتاب) المعجز، (مفصلاً) مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء. ثم عضد الدلالة على أن القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقته له، (فلا تكونن من الممترين) من باب التهيج والإلهاب كقوله تعالى – ولا تكونن من المشركين – أو فلا تكونن من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ،

(٣) نفس المرجع السابق – ص ٤٣ .

(٤) نفس المرجع السابق – ٤٥ .

ولا يريك جود أكثرهم وكفرهم به ، ويجوز أن يكون فلا تكونن خطايا لكل أحد على معنى أنه إلا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه، فما ينبغي أن يمتري فيه أحد وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته، (وتمت كلمات ربك) أي تم كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعده وأوعده، (صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته) لا أحد يبدل شيئاً من ذلك بما هو أصدق وأعدل كلمة ربك: أي ما تكلم به ، وقيل هي القرآن.

(وإن تطع أكثر من في الأرض) من الناس أضلوك؛ لأن الأكثر في غالب الأمر يتبعون هواهم ، ثم قال (إن يتبعون إلا الظن) وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم، (وإن هم إلا يخرصون) يقدرون أنهم على شئ أو يكذبون في أن الله حرم كذا وأحل كذا. تسطر الآيات أقوى وأنبأ أساليب المحاجة الكلامية^(١).

يقول الكشاف في تفسيره للآية " ١٣٠ " (ذلك) إشارة على ما تقدم من بعثة الرسل إليه وإنذارهم سوء العاقبة و (أن لم يكن ربك مهلك القرى) تعليل: أي الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم على أن هي التي تنصب الأفعال ، ويجوز أن تكون مخففة من الثقلة على معنى لأن الشان والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وذلك أن تجعله بدلاً من ذلك كقوله - وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع - (بظلم) بسبب ظلم قدموا عليه أو ظالماً ، على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب لكان ظلماً وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح، (ولكل) من المكلفين، (درجات) منازل، (مما عملوا من جزاء أعمالهم)، (وما ربك بغافل عما يعملون) أي بساه عنه يخفى عليه مقاديره وأحواله ما يستحق عليه من الأجر، (وربك الغني) عن عبادة وعن عبادتهم، (ذو الرحمة) يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة، (إن يشأ يذهبكم) أيها العصاة، (ويستخلف من بعدكم ما يشاء) من الخلق المطيع (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

وقوله (اعملوا على مكانتكم) يحتمل أعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وأماكنكم ، أو أعملوا على جهنم وحالك التي أنتم عليها يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حاله على مكانتك يا فلان أي أثبت على ما أنت عليه لا تتحرف عنه، (إنني عامل) أي عامل على مكانتي التي أنا عليها والمعنى: أثبتوا على كفركم وعداوتكم لي، فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم، (فسوف تعلمون) أننا تكون له العاقبة المحمودة وطريقة هذا الأمر طريقة قوله - اعملوا ما سننتم - وهي التخلية والتسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشر، فكأنه مأمور به ، وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتقصى عنه ويعمل بخلافه ، (وعاقبة الدار) العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها ، وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك فيه إنصاف في المقال وأدب حسن، مع تضمن شدة الوعيد والثوق بأن المنذر محق والمنذر مبطل^(٢).

(١) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ٤٦ .

(٢) الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد) ، تفسير الكشاف - دار الفكر للطباعة والنشر - ص ٤٥ .

الخاتمة:

خلص هذا البحث إلى ضرورة الدعوة إلى تصحيح العقائد الفاسدة بمختلف وسائل الخطاب حيث جاءت أساليب الخطاب مختلفة مرة باللين واللفظ مع التزام الحجة، والمنطق والبرهان، ومرة بالتقريع والترهيب من المعاندين والجادين بعبودية الله تعالى.

كما قدمت السورة تسليية للنبي صلي الله عليه وسلم لما لاقاه من أذى كفار قريش وهو يدعوهم إلى توحيد الله وعدم الشرك به، لذلك تأسى للدعاء من بعده (صلي الله عليه وسلم) في مختلف الأوقات على مختلف بقاع الأرض ليتأسوا لما جاء في السورة، بالدعوة للصبر والمرابطة على طريق التوحيد والدعوة له.

جاء في السورة صفات الكفار من المشركين والمنكرين للبعث وحالهم يوم القيامة بعد تعنتهم على الله ورسوله وإعراضهم عن الآيات، والعلاقة بين كفر الجن والإنس معاً.

كما قدمت السورة صورة حية لرحلة سيدنا إبراهيم، حجة التوحيد، وهو يسعى لطريق الحق ليعبد الله على عقيدة سليمة.

وقدمت السورة العديد من مواقف العظة والاعتبار من خلال الترهيب والإنذار، والتبكييت للكفار والمشركين.

أقرت السورة أنه من كان طبعه الفساد والمكابرة من بني البشر، قل أن يستقيم على صراط الله ولو رُفِع عنه العذاب لعاد إلى كفره.

قدمت السورة خطاب قوي المنطق بحجج دامغة للجادين بوحداية تعالى وقد بينت له العظمة الصمدانية لله تعالى.

التوصيات:

- ضرورة الحرص على الاعتقاد السليم والمراجعة المتواصلة لتصحيح العقيدة بتجديد النية في كل عمل يقوم به الإنسان، وتوحيد الله بالعبادة وهو أعظم أمر أمرنا الله به.
- السعي إلى نشر دعوة التوحيد والإسلام إلى كل من لم تصله دعوة الإسلام والدعوة كذلك إلى تصحيح ما فسد من العقائد من جراء مستجدات الحياة وتجديد الثقافات، وهذا واجب كل مستطيع من المسلمين في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- محاربة الشرك بكافة صورته وأشكاله في إطار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو أجل أمر وأعظم نهي نهانا الله عنه.
- الحمد المتواصل على نعم الله على الإنسان وأولها الهداية ونعمة الطعام ومسخرات الكون الأخرى.
- المداومة على القرآن لتحصيل المنفعة من نفائس معانيه.

المصادر والمراجع

المصادر:

أولاً: القرآن الكريم.

١. إبراهيم مصطفى ، المعجم الوسيط ، دار التراث العربي ، بيروت ، لبنان.
٢. ابن الجوزي (أبو الفرج جمال الدين بن عبد الرحمن بن علي محمد الجوزي القرشي البغدادي) ، مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٣٩٣ هـ ، ١٩٨٣ م.
٣. ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، المسير في علم التفسير.
٤. ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله) ، تاريخ ابن عساكر ، التهذيب.
٥. ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي) ، الحافظ بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، دار الحديث القاهرة ، ٢٠٠٢ م.
٦. ابن هشام (محمد بن الملك) ، السيرة النبوية ، دار الكتاب العربي المكتبة التجارية ، ط ٥ ، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م.
٧. أبو الفضل (محمد بن مكرم) ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت.
٨. أبو بكر جابر الجزائري ، كتاب منهاج المسلم وعقيدة المؤمن ، ط ١ ، دار الفكر بيروت ، ١٩٩٥ م.
٩. أحمد الرحمة ، التربية الإسلامية ، ١٤٢٣ هـ
١٠. أحمد علي المراغي ، تفسير المراغي.
١١. البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري) ، صحيح البخاري.
١٢. الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي) ، دار الفكر ، لبنان ١٩٧٤ م.
١٣. الرازي (أبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي) ، التفسير الكبير ، دار الفكر بيروت ، ١٤١٥ هـ ، ١٩٧٥ م.
١٤. الرازي ، مفاتيح الغيب.
١٥. الراغب ، الأصفهاني (أبو القاسم بن محمد الراغب الأصفهاني) ، المفردات في غريب القرآن ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت.
١٦. الزركشي (بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي المصري) البرهان في علوم القرآن، دار الجيل بيروت ، ط ٥ ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
١٧. الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمد بن عمر) ، تفسير الكشاف ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٨. السيوطي (عبد الرحمن جلال الدين السيوطي) ، الدرر المنثور في التفسير بالمأثور والإتقان في علوم القرآن ، دار الفكر بيروت، ط ١ ، ١٤٠٣ هـ.
١٩. الشوكاني (محمد بن علي بن محمد الشوكاني) ، فتح القدير ، دار الحديث القاهرة ، ط ٣ ، ١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م.
٢٠. الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) ، جامع البيان في تفسير القرآن ، دار الفكر بيروت ، ط ٣ ، ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م.

٢١. ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن عطية) ، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، دار ابن حزم لبنان ، ط ١ ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٠ م.
٢٢. القرطبي (أبو عبيده محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي) ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م.
٢٣. النووي (الإمام أبي ذكريا يحيى ابن شرف النووي) ، شرح صحيح مسلم، دار الفكر بيروت - د.ت.
٢٤. الفيروز آبادي (حمد بن يعقوب بن إبراهيم الشيرازي الفيروز آبادي) ، بصائر ذوي الضمير في لطائف الكتاب العزيز.
٢٥. سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ، ط ٢٧ ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
٢٦. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين ، كتاب الإرشاد لمحجة الاعتقاد ، دار النشر للنشر والتوزيع.
٢٧. عبد المنعم النمر ، علوم القرآن الكريم ، دار الكتب الإسلامية ، ط ٢.

جميع الحقوق محفوظة © 2020 ، الدكتورة هدي عبد الرحمن عبد الحفيظ علي ، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي.

(CC BY NC)